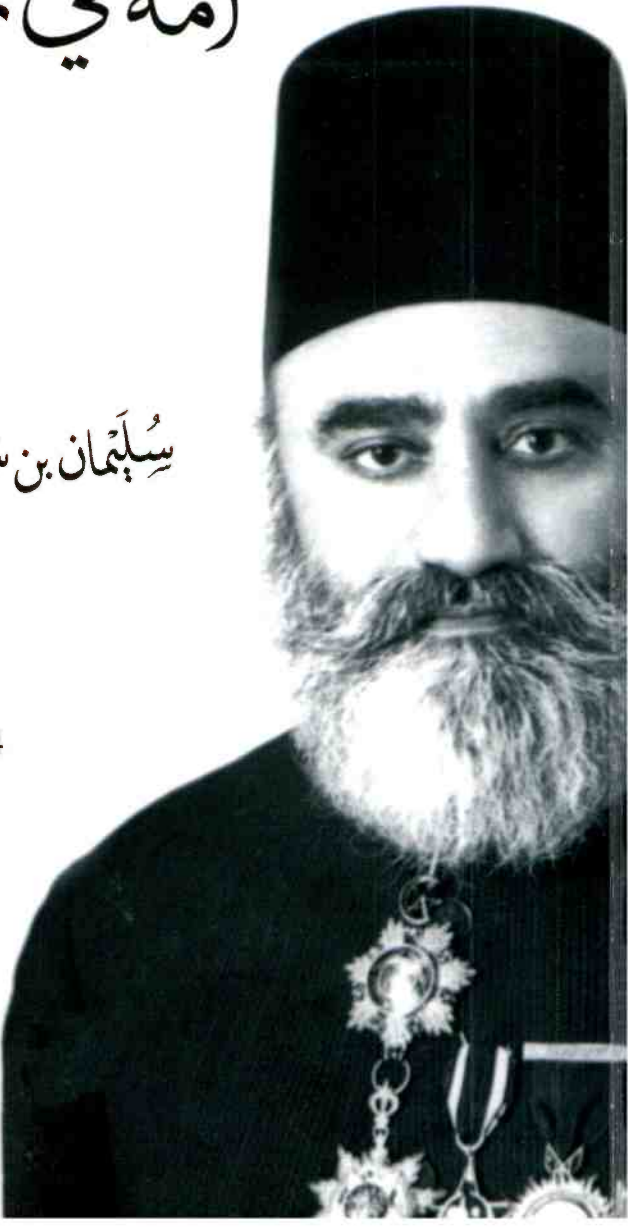
سُلَيمَان بَاشَا البَارُونِي

أمة في رجل

تأليف

سُلَيْمَان بن سَعِيد الشّيبَانِي النَّفُوسِيّ



الطبعة الأولى

1434هـ - 2013م

جمعية الفتح للدراسات الإباضية

طمزين
tamzin
Printing and Advertising للطباعة والإعلان ـ

جمعية الفتح للدراسات الإباضية

سُلَيْمَان بَاشَا البَارُونِيّ

أُمَّةٌ فِي رَجُل

تأليف

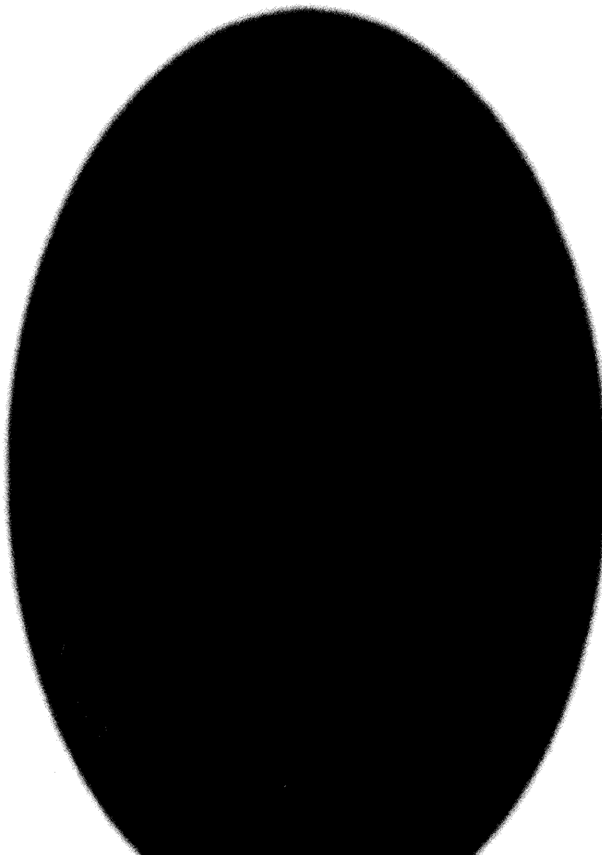
سُلَيْمَان بن سَعِيد الشَّيبَانِي النَّفُوسِيّ

الطبعة الأولى

1434هـ ـ 2013م

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

خالد علي بورفيـــع



المجاهد سليمان باشا الباروني

قَالُوا عَنِ البَارُونِي

- عَرفتُ الزعيمَ الباروني في الحربِ الطرابلسية، فَأَكْبَرْتُهُ، وأَصبَحَتْ له في نفسي مَنْزِلَةٌ سامِيَةٌ، بأفعاله المجيدة، وخِلاله الحميدة، وبما قَدَّمَهُ لِبَلَدِهِ ووطنه، من صادق الإخلاص والوفاء، ولا شَكَّ عندي أنه من الذين باعوا الحياة في سبيل الله، واشتروا بها الجنة ورضوان الله.

الأمير عُمر طوسون

- إنَّ سليمان الباروني، رجل التضحية في سبيل الإسلام، وإعزاز كلمة الإسلام، قَلَّما يدانيه مُدَانٍ مِنْ أَهْلِ عَصْرِهِ في هذه الخَصِيصَةِ النَّيِّرَةِ. أَغْدَقَ اللهُ على جَدَثِهِ سُحُبَ الرِّضْوَانِ.

مُحَمّد زاهد الكَوْثَرِي

- بَطَلٌ وَهَبَ نفسه وماله في خدمة دينه ووطنه، لقد كان سليمان الباروني أُمَّةً مجتمعةً في جَسَدٍ واحد، وقُوَّةً عظيمة أوجدها الله، وهيأها للزعامة في أمة كانت أحوج ما تكون إلى مثله.

اليوزباشي محمد إبراهيم لطفي المصري

- كان رحمه الله مِثَالَ الشَّجَاعَةِ والمرُوءَةِ، والجَلَدِ على الشدائد، والإقدام على الصِّعابِ، معتمدا على الله وما يمده مِنْ عَوْنٍ وتَوْفِيقٍ. كان رحمه الله مُوَفَّقًا في

جميع أعماله السياسية والعسكرية والحربية، وَكَفَاهُ فَخْرًا أن قام وَحْدَهُ بتأسيس حكومة وطنية في طرابلس، فالْتَفَّتْ حَوْلَهُ كافة القبائل الطرابلسية، يَأْتَمِرُونَ بِأَمْرِهِ، وينتهون بِنَهْيِهِ، إذ كان مثال الاستقامة والنَّزَاهَةِ، والعِفَّةِ والإِخْلَاصِ، وكان يخدم دينه ووطنه بكل هذه الصفات العالية، والخِلال السَّامِيَةِ[1].

أبو القاسم سعيد بن يحيى الباروني

- إنني لا أقدر أَنْ أَصِفَ لكم مبلغ أسفي الشديد على فقيد العروبة والإسلام المجاهد الكبير صاحب السعادة سليمان باشا الباروني، ولا أستطيع أن أشرح لكم تفصيليا ما لهذا البطل العربي من الأعمال الجلية التي بذلها في سبيل الدفاع عن العرب والمسلمين، ولكن بالإجمال أقول: لقد كان الفقيد ـ رحمة الله عليه ـ من أعيان هذه الأمة ومن مشاهير رجالها الذين سعوا لحفظ عظمتها ومجدها، وكان صادقا في شعوره القومي، صادقا في شعوره الإسلامي، محبا للحرية والاستقلال.

الشيخ هاشل بن راشد المسكري

1) أبو القاسم الباروني، حياة سليمان الباروني، ص 35.

https://archive.org/details/@hassan_ibrahem

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد.

فمن الرجال من يُعَد بألف رجل، ومنهم من لا قيمة له، ولا وزن له في الحياة، وبعض الرجال من هو أُمّة وَحْده، نظرا لكثرة الصفات التي حباه الله بها، ولتعدد الجوانب التي اشتهر بها، ولقد قرأت لكثير من العظماء الذين اشتهروا في التاريخ الإسلامي، وتركوا آثارا يذكرون بها، منهم العلماء، والأدباء، والشعراء، والمؤرخين، والسياسيين، والمجاهدين، ولكن لم أقرأ لأحد ممن توفّرت فيه كل هذه الصفات كما توفرت في شخصية الشيخ سليمان باشا الباروني، فهو من الشخصيات الفريدة التي اجتمعت فيه من الخصائص الحميدة ما لم تتوفر إلا في قليل من الناس، فهو عالم عامل، ومجاهد كبير، وقيادي قدير، وشاعر أديب، وسياسي محنَّك.

ورغم هذه الصفات العظيمة فإنه لا زال مغمورًا في دنيا الرجال، لا يعرفه كثير من الناس، سواء في بلده ليبيا، أو في غيرها من البلدان، فقد تعمدّت الدول المتعاقبة على حكم ليبيا، وخصوصًا في عهد نظام القذافي البائد إخفاء تاريخه، وتاريخ المنطقة التي ينتمي إليها، وهُمِّش دوره في مقاومة الاستعمار الإيطالي، فلم يُعْرَف من جهاده إلا القليل، إذ طغت شخصية المجاهد عمر المختار رَحِمَهُ ٱللَّهُ على جهاد الليبيين ضد الاحتلال الإيطالي، خصوصاً بعد انتشار الفيلم السينمائي الرائع، الذي صوّر جانبا من جهاد الليبيين ضد الاستعمار البغيض في المنطقة الشرقية.

والواقع أنّه يوجد الكثير من أبطال ليبيا المجهولين الذين لا يُعرَف تاريخهم وجهادهم في مقاومة الاحتلال الإيطالي، ومن هؤلاء: سليمان الباروني، ومحمد عبد الله البوسيفي، ورمضان السّويحلي، وعبد النبي بلخير، ومحمد سيف المحمودي،

وأحمد المريّض، وخليفة بن عَسْكر، ومحمد عمر البُوسِيفي، ومحمد فرحات الزّاوي، ومحمد مختار كعبار، وغيرهم من قيادات المجاهدين، الذين يجب الاهتمام بتاريخهم ونشره، لتتعرف الأجيال الحالية والقادمة على التضحيات التي قام بها أجدادهم، من أجل حريّة ليبيا واستقلالها.

وفي هذا الكتاب الصغير أحببتُ التعريف بهذه الشخصية الفريدة التي تمثلت فيها صفات جعلته يستحق أنْ يوصف بأنه فذٌّ من أفذاذ العلماء المجاهدين والشعراء المشهورين في العالم الإسلامي، وزعيم من زعماء النهضة الإسلاَمِيَة الحديثة.

ومما شجعني ودفعني إلى الكتابة - بالإضافة إلى الإعجاب بشخصيته الفريدة - قلة مَنْ كَتَبَ عنه، فمنذ وفاته رَحِمَهُ ٱللَّهُ في سنة 1940م وإلى سنة 1991م، لم ينشر عنه وعن مسيرة حياته وجهاده إلا خمسة كتب، كانت ولا زالت هي المصادر الرئيسة لكل باحث.

وحسب اطلاعي، فإنَّ أولَ مَنْ كتب عنه هو الأديب الشاعر الأستاذ «أبو القاسم سعيد بن يحيي الباروني»[1] (ت: 1372هـ/1952م) في كتاب له بعنوان «حياة سليمان الباروني، زعيم المجاهدين الطرابلسيين»، صدرت الطبعة الأولى منه في 72 صفحة عام 1360هـ/1941م، أي بعد عام واحد من وفاته. ثم صدرتْ الطبعة الثانية في 160 صفحة عام 1367هـ/1948م، وقد كتب مقدمة الكتاب «الأمير عمر طوسون باشا»، وهو من رجالات مصر المخلصين لوطنه وأمَّتِهِ، الذي كان

---

1) أبو القاسم سعيد بن يحي الباروني: كاتب وأديب ومناضل من كاباو، بجبل نفوسة. بليبيا. كان صديقا للباروني وأول من كتب عنه. اشتغل بالتدريس في مصر. رفض النظام الملكي، ونادى بالنظام الجمهوري فسجنه الإنجليز في مصر، توفي في السجن سنة (1372هـ/1952م).

صديقا للباروني، وكان له أثر كبير في دعم جهاد الليبيين ضد الاستعمار الإيطالي، بما قدمه من المعونات المادية والفكرية والأدبية.

ثم جاء بعده صديقه وزميله الوفي «الشيخ أبو اليَقْظان إبراهيم بن عيسى القراري المزابي»[1]، وكتب عنه كتابا في جزأين، بعنوان «سليمان الباروني باشا في أطوار حياته»، الذي تم طبعه أول مرة سنة 1376هـ/1956م، ثم طُبع مصورا في عُمان، وهو يُعدّ من أشمل الكتب التي تناولت جوانب حياته المختلفة.

ونظرا للعلاقة المتينة، والمراسلات التي لم تنقطع بينهما حتى وفاة الباروني، فإن هذا الكتاب في ظني يحتوي على أدق المعلومات وأصحها عن المجاهد سليمان الباروني.

وفي سنة 1964م قامت ابنته «زَعِيمة الباروني» بجمع ما بحوزتها مما تركه والدها من الوثائق والرسائل الخاصة بالجهاد، وطبعتها في كتاب بعنوان «صفحات خالدة من الجهاد الليبي»، كما قامت بجمع أشعاره، وأضافتها إلى ديوانه المعروف بـ«ديوان الباروني» الذي طبعه بنفسه في القاهرة سنة 1907م، فأعادت طباعته سنة 1964م.

وبعده بسنوات أصْدرَتْ كُتَيِّبًا صغيرا عن سيرة والدها بعنوان «سليمان الباروني، تاريخ موجز»، وكانت هذه الكتب ـ التي يندر وجودها بالمكتبات ـ إلى عهد

1) أبو اليقظان إبراهيم بن عيسى، (و: 29 صفر 1306هـ/ 1888م ـ ت: 26 صفر 1393 هـ/30 مارس1973م) من بلدة القرارة، وادي مزاب، بالجزائر، صحفي ومناضل ضد الاستعمار الفرنسي بقلمه ولسانه. أصدر 8 صحف عطلتها السلطات الفرنسية واحدة تلو الأخرى، قاد الحركة الإصلاحية في وادي مزاب مع الشيخ بَيُّوض وآخرين، وكان زميلا وصديقا للباروني، التقيا في معهد الشيخ امحمد بن يوسف اطفَيّش، ولم تنقطع المراسلات بينهما حتى وفاة الباروني. من أبرز تلاميذه الشيخ علي يحيى معمر وكانت بينهما مراسلات.

قريب هي المراجع الوحيدة المطبوعة عن سليمان باشا الباروني.

وفي السنوات الأخيرة كُتِبَت عنه العديد من البحوث الجامعية، والدراسات الأكاديمية، أولها ـ حسب اطلاعي ـ كتاب «سليمان الباروني، آثاره وأدبه»، للدكتور محمد مسعود جبران، طُبع سنة 1991م، ثم أعيد طبعه سنة 2012.

ثُم أُلِّفَتْ عنه كتب أخرى تناولت جوانب مختلفة من حياته وجهاده، ذكرتُ بعضها في فصل المصادر والمراجع في نهاية الكتاب، حيث يجد القارئ قائمة الكتب والبحوث التي اطلعت عليها، واستفدت منها، مع مصادر أخرى اعتمدت عليها في إعداد هذا الكتاب.

كما أن مركز جهاد الليبيين في طرابلس، بليبيا يحتوى على وثائق كثيرة عن الباروني، وبخاصة المتعلقة بدوره في الجهاد ضد الإيطاليين.

وفي سلطنة عُمان ـ التي عاش فيها قرابة ستة عشر سنة ـ توجد وثائق ورسائل تبين جانبًا مهمًّا من تاريخ حياته، تحتاج من ينفض عنها الغبار وينشرها، لكي يستفيد منها القُرّاء والباحثون.

ورغم أهمية تلك الكتب والدراسات والبحوث، التي تناولت جوانب متعددة من حياة الباروني، فإنه لم يُتَح لها فرصة الانتشار الواسع بين المسلمين، فمنها ما بقيَ مخطوطا، ومنها ما طبع مرة واحدة، فلم يستفد من تلك الكتب إلا القليل من الناس، الذين عاصروا فترة نشرها، أو ممن كانوا مهتمين بتراث الباروني، أو الجهاد الليبي.

ومنذ أن حصلتُ على نسخة مصوَّرَةٍ من كتاب الشيخ أبي اليقظان إبراهيم «سليمان الباروني باشا في أطوار حياته»، وأنا أُمَنِّي نفسي بكتابة مختصر عن حياة الباروني، الغنيّة بالأحداث والتجارب المهمة، ولأقَدِّم فكرة عن هذه الشخصية العظيمة، التي كان لها دور كبير في مسيرة التاريخ في ليبيا بصفة خاصة، وفي تاريخ

الإسلام بصفة عامة.

ورغم أني بدأت الكتابة عن الباروني منذ سنوات عِدّة، لكن لم تتهيأ لي الظروف والأسباب لإتمام هذا العمل، إلا بعد قيام ثورة 17 فبراير 2011م المباركة في ليبيا، وقد تزامن الانتهاء من هذا الكتاب مع الذكرى الثانية لهذه الثورة، فلله الحمد والمنة.

ومن خلال دراستي لحياة الباروني باشا، فقد رأيت تقسيمها إلى خمس مراحل، بعد أن قدّمْتُ تعريفًا بأسرته، حَوَتْ نبذةً مختصرة عن والده، وأعمامه، وإخوته، وذُرِّيَتِهِ، وأصل العائلة البارونية.

1. **المرحلة الأولى**: مرحلة النشأة والتكوين العلمي؛ من ولادته إلى عودته من وادي مزاب سنة 1316هـ/1898م.
2. **المرحلة الثانية**: المحنة الأولى وبداية الإصلاح؛ من سنة 1316هـ/1898م إلى سنة 1329هـ/1911م.
3. **المرحلة الثالثة**: مرحلة الجهاد ضد الاستعمار؛ من سنة 1329هـ/1911م إلى سنة 1338هـ/1920م.
4. **المرحلة الرابعة**: مرحلة النفي والإبعاد؛ من سنة 1338 هـ/1920م إلى سنة 1342هـ/1924م.
5. **المرحلة الخامسة**: مرحلة التمكين والإنجازات؛ من سنة 1342هـ/1924م إلى سنة 1358هـ/1940م.

ثم ذكرتُ شيئًا من نشاطه العلمي والفكري، وَبَعْضًا من صفاته وأخلاقه، ونماذج من شعره، وأخيرا ختمت الكتاب ببعض الدروس والعِبَرِ المستفادة من مسيرة حياته.

وفي ختام هذه المقدمة، من الواجب عليَّ أن أشكر كل من ساهم في إخراج

هذا الكتاب؛ سواءً بالمراجعة أو بالنصيحة، أو بالطباعة أو بالتنسيق، أو بالتشجيع، أو غيره، ولكثرتهم لا يسع المقام لذكر أسمائهم، أسأل الله تعالى أن يبارك لهم في سعيهم جميعا.

كما يجب التنبيه إلى أن هذا الكتاب الصغير ليس بحثًا أكاديميا، أو ورقة علمية، ولذلك لم ألتزم فيه بكثير من ضوابط البحث العلمي، فلم أُقَسِّم الكتاب إلى فصول، ومباحث، ومطالب، ولم أُوَثِّق كلَّ نَصٍّ نقلتُهُ، كما أني لم أُعَرِّف بكل الأماكن والشخصيات التي وردت في الكتاب، ولو فعلت ذلك لخرج الكتاب عن القصد الذي كتب من أجله وهو التعريف بشخصية الباروني باختصار غير مخل إن شاء الله.

وأخيرا أسأل الله تعالى أن يتقبل مني هذا العمل، وأن يغفر لي ما بدر مني فيه من خطأٍ أو زلل، إنه على كل شيء قدير، وبالإجابة جدير.

كتبه: سليمان بن سعيد الشيباني النَّفُوسي، مَسْقَط، سلطنة عُمان

الأحد 7 ربيع الثاني 1434هـ/17 فبراير 2013م.

تعريف بالعائلة البارُونية

ينتمي الشيخ سليمان الباروني إلى أسرة عريقة، مشهورة بالفضل والعلم والحُكم في جبل نفوسة، يرجع أصلها إلى الشيخ أبي هارون موسى بن هارون التّمْلُوشَايتي، أحد علماء القرن الرابع الهجري.

أُمُّهُ: عزيزة بنت سليمان تخشيشة. أما أبوه: فهو الشيخ المربي الشاعر عبد الله بن يحي الباروني، وكلاهما من «كاباو» بجبل نفوسة، ليبيا.

وفيما يلي تعريف بوالده، وأعمامه وإخوته، وزوجاته، وأولاده وبناته.

أولا ـ والده: عبد الله بن يحي الباروني:

هو العالم الرباني الشيخ المربي عبد الله بن يحي بن أحمد الباروني، ولد سنة 1236هـ/1820م، أخذ مبادئ العلم في مسقط رأسه، بكاباو، ثم سافر إلى جرْبة، فدرس فيها على الشيخ أبي عثمان سعيد بن عيسى الباروني، ثم انتقل إلى مصر سنة 1259هـ/1843م، لينهل من علماء الأزهر الشريف أمثال الشيخ إبراهيم السَّقّا، والشيخ عبد الرحيم الطَّهْطَاوي وغيرهم.

كان في مصر مثالا للجدّ والاجتهاد والتحصيل والعفة والنزاهة والخلق الكريم، فاكتسب بهذه الصفات مركزا ممتازا بين علماء وأدباء مصر في ذلك العصر، وكان على علاقة حميمة مع الشيخ سعيد بن قاسم الشَّمَّاخِي، الذي شغل منصب وكيل تونس في مصر. وأثناء وجوده في مصر، قام بالتدريس في «وكالة الجاموس» التي تمثل الوقف الإباضي الجربي بمصر.

وبعد أن أخذ حظه من العلوم، عاد من مصر واستقر في «جادو»، بجبل نفوسة، ثم اشتغل بتعليم الناس أمور دينهم، وحل مشكلاتهم، وكان على جانب كبير من العلم والورع، الذي انعكس في نثره وشعره.

تخرج على يديه مجموعة من التلاميذ النجباء منهم: أبناؤه الثلاثة: سليمان، ويحيى، وأحمد، وكذلك العالم الجليل الشيخ سليمان الجادوي (ت: 1370هـ/1950م)، من كبار الصحفيين في تونس الذي كان يشغل مدير جريدة «مرشد الأمة»، وأيضا الأديب الشاعر الشيخ عَمرو بن عيسى التَّنْدمّيرتي[1] (ت: 8 جمادى الأولى 1321هـ/1903م)، صاحب ديوان القلائد الدرية». كما تتلمذ على يديه أبو زكريا يحي الباروني (ابن أخيه عيسى) الذي شغل منصب مفتي نالوت (توفي عام 1324هـ/1906م)[2]، وكذلك سعيد بن علي بن تَعاريت الجربي (ت: 1354هـ/1936م)، وغيرهم.

رغم أن الشيخ عبد الله الباروني كَرَّسَ حياته للتدريس، والقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقد ترك تآليف، ووصَلَنَا من مؤلفاته الآتي:

1- «سُلَّمُ العامة والمبتدئين إلى معرفة أئمة الدين» وهي رسالة قصيرة في ذكر بعض علماء الإباضية، حقَّقها وعلق عليها نجله الشيخ سليمان باشا الباروني، وقام بطبعها سنة 1324هـ/1906م.
2- مجموعة كبيرة من القصائد طُبِعت مع بعض قصائد تلميذه عَمرو بن عيسى التندميرتي في كتاب اشتهر باسم «ديوان الشيخ عبد الله الباروني»، وفي هذا الديوان انعكست فيه أشعة علمه وأدبه وخلقه وثقافته. وَعَظَ فيه وأرشد، وَنَصَحَ فيه وذكّر. امتدح فيه الرسول ﷺ، ونَوَّهَ بالعلماء والصالحين، وأشاد بأهل العدل من الأمراء والقضاة والرؤساء، كما رثى فيه بعض الذين رحلوا من أهل

1) تنْدَمِّيرَة: إحدى قرى جبل نفوسة، تقع على الضفة الغربية لوادي شرْوس بين الحرابة وتمْلُوشَايت. كانت مركزا من مراكز الإشعاع العلمي. وفي هذه القرية الصغيرة، نشأ فيها عدد غير قليل من العلماء الذين دونت أقوالهم وسيرهم في كتب الفقه والتاريخ.
2) أبو اليقظان إبراهيم، سليمان الباروني باشا في أطوار حياته، ج 1، ص 35.

الصلاح.

توفي الشيخ عبد الله الباروني سنة 1332هـ/ أبريل1913م، ودفن في مسقط رأسه بكاباو.

ثانيا ـ أعمامه:

ذكر الشيخ أبو اليقظان ـ وهو أعرف الناس بالباروني ـ أن من أعمامه: الشيخ عيسى، والشيخ أحمد، ولم يذكر أي ترجمة للشيخ عيسى، عدا قصيدتين لأخيه الشيخ عبد الله؛ الأُولى يُعَبِّرُ فيها عن اشتياقه إليه، والثانية في رثائه.

أما عن الشيخ أحمد فقال عنه: «إنه عالم أديب، له شعر رقيق، وقد شاهدناه لما زارَ قُطْبَ الأئمة الشيخَ أطْفيّش في وادي مزاب عام 1326هـ/1908م، أول ما زرناه نحن التلامذة، وشاهدنا فيه اللطف ودماثة الأخلاق. وهو والد الشاعر الأديب الشيخ الحاج سعيد الباروني، صاحب الديوان الشهير، قاضي بلد «يفرن»، ثم «جادو» ثانيا، والأديب الألمعي امحمد الباروني»[1].

ثالثا ـ إخوته:

للشيخ سليمان أخوان هما: يحي وأحمد.

ـ أما يحي فهو أمين سِرّه وساعده الأيمن، ورفيقه في الجهاد، تتلمذ في تونس، وفي الأزهر بمصر، وفي مزاب بالجزائر، وهو أديب ألمعيٌّ، له شعر، بعضه في ديوان أخيه سليمان، قام بمهمات خطيرة وصعبة، منها سَفَرُهُ سنة 1334هـ/1916م بإذن أخيه سليمان في غوّاصة من تركيا إلى مصراته، بليبيا أيام الاستعمار، ليتحسَّس له أخبار الوطن.

عُيِّن يحي نائبا لرئيس مجلس الشورى بعد تأسيس الجمهورية الطرابلسية

1) أبو اليقظان إبراهيم، سليمان الباروني باشا في أطوار حياته، ج 1، ص 42.

في12 صفر 1337هـ الموافق 16 نوفمبر 1918م. توفي يحيى سنة 1346هـ/1927م، وترك بنتا واحدة اسمها «نَزِيهة».

رثاه أخوه سليمان الباروني وهو في عُمان بعد أن بلغه نبأ وفاته، بقصيدة طويلة[1]، جاء فيها:

يحيى أخي أَيْنَ أَنْتَ اليومَ مُسْتَتِرٌ ... يا خَيْرَ عَوْنٍ إذا ما أَحْدَقَ الخَطَرُ
يا مخزنَ السِّرّ يا ربّ الوفاءِ ويا ... فَخْرَ الرِّجَالِ ويا من وَجْهُهُ قَمَرُ
نَعاكَ لي اليوم كُلُّ الكاتبين وَلَمْ ... أَجِدْ سِوَى الصَّبْر فيما شَاءَهُ القَدَرُ
بالطَّبْعِ نحزَنُ لَكِنْ هَلْ لَنَا أَمَلٌ ... في عَوْدَةٍ مِنْكَ؟ كَلَّا! مَا لِذَا أَثَرُ
إنَّا حَزَنَّا وَطَالَ الصَّمْتُ وَانْزَعَجَتْ ... مِنَّا النُّفُوس ولكن هَلْ شَفَى الضَّجَرُ؟
هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لا عَوْدٌ ولا صِلَةٌ ... مِنْ بَعْدِ مَوْتٍ وَلَا نَعْتٌ وَلا خَبَرُ
إلى القيامةِ حين الحَشْر يَجْمَعُنَا ... نَرْجُو اللِّقَاءَ وَذَنْبُ الكُلِّ مُغْتَفَرُ

أما أخوه أحمد فقد وُلِدَ في «جادو» ودَرَسَ في مصر وتونس. ثم اشتغل بالقضاء طوال حياته (كان حيا في 1373هـ/1954م) فعمل قاضيا في «نالوت» و«الرّجِيبات» وأماكن أخرى. تزوج أربعة نسوة وترك العديد من الأولاد والبنات منهم: مريم، وعمرو، وعبد الله، وعيسى، ويوسف، وسعيد، وعلي، وصالح، وعائشة ومعِيزّة، وسليمان، ويحيى، وزكري، وسليمة، وعياد. واشتهر منهم عمرو، وسعيد.

رابعا ـ زوجاته:

تَزَوَّجَ الباروني أربع زوجات الأولي هي «مريم الجادوية» وأنجب منها: سعيدا، ثم تَزَوَّج «ميرة أبو الخوخات» وأنجبت له: «إبراهيم»، و«زَعِيمة» و«عَزِيزة»، أما زوجته

1) حياة سليمان الباروني، ص 142.

الثالثة فهي «مسعودة بنت صالح» من «مَزْغُورَة»، بـ«جادو»، توفيت ولم ينجب منها.

والرابعة تزوجها في عُمان، وهي «شَمْسَة بنت علي بن جبر الجابري»، وأنجب منها بنتًا واحدةً توفيت، في صِغَرِهَا[1].

خامسا ـ أبناؤه وبناته:

المشهور أنّ سليمان الباروني ترك ولدين هما : «سعيد»، و«إبراهيم»، وابنتين هما: «عَزِيزَة» و«زَعِيمة».

1 ـ **سعيد**: سافر إلى تركيا مع والده، حيث التحق بالمدرسة الحربية في إستانبول أيام كان أبوه عضوا في البرلمان العثماني، وقد نال رتبة ضابط، تَزَوَّجَ في تركيا امرأة اسمها «صديقة»، وأنجب منها «عبد الله»، انقطعت أخباره، و«يحي» لازال حيا وهو مقيم بكندا، و«مريم» مقيمة بتركيا. عاد سعيد مِنْ تركيا إلى ليبيا خلال السبعينيات من القرن الماضي، واستقر بها، وتوفي ودُفِنَ بمدينة «جادو».

2 ـ **إبراهيم**: ولد سنة 1329هـ/1911م، كان أديبا وشاعرا، يقول عنه الشيخ أبو اليقظان إنه ورث صفات أبيه من ذكاء وفطنة، درس في مصر والعراق، وعَمِلَ في عُمان وبغداد، تزوج من ابنة عمه مريم أحمد الباروني، واشتهر من أبنائه «طارق» الذي تَوَلَّى منصب وكيل ديوان المحاسبة، ثم وزيرا للصناعة في العهد الملكي في ليبيا.

كان إبراهيم شاعرا وكاتبا وأديبا، فمن قصائده الرائعة، تلك التي نظمها وهو تلميذ بمدرسة «رأس التين» بالإسكندرية، في 17 من ذي الحجة سنة 1345 هـ /1929م، دعا فيها للاتحاد والذَّوْدِ عن الوطن، وصَوَّرَ بها ما يجيش بنفسه مما يتمناه

1) صلاح الباروني، رسالة خاصة، وكذلك محاضرة مسجلة، انظر: «حياة سليمان الباروني في سلطنة عُمان»، بحث تخرج، 2010 معهد العلوم الشرعية، سلطنة عُمان، إعداد محمد شعبان قجم.

لوطنه من عز وسُؤْدَد[1]، ومطلع القصيدة:

طَيْفٌ أَلَمَّ بِسَاحَتِي فَأَقَامَا وَأَحَلَّ مَا قَدْ كَانَ قَبْلُ حَرَامَا

وَأَبَاحَ لِي حُبًّا تَمَلَّكَ مُهْجَتِي فَهَوِيتُهُ كَالعَـابِدِ الأَصْنَامَا

له كتاب بعنوان «بشائر الإسلام وتقَدُّمه»، طُبِع في دمشق سنة 1972م، وله عدة مقالات نُشِرت في صحف ومجلات العراق ومصر. توفي إبراهيم في شهر أبريل 1996م، بعد وفاة زوجته بحوالي شهر.

3 ـ **زَعِيمة**: أشهر بنات المجاهد سليمان، وُلِدَتْ في جادو عام (1328هـ/ 1910م)، بدأت دراستها الابتدائية في تركيا، ثم أكملت دراستها في عدة بلدان، عاشت مع والدها سنوات طويلة في المهجر واستطاعت خلالها أن تتلقى قدراً من التعليم المنظم، وتفتحت موهبتها وسط مناخ علمي لم يكن متاحاً لغيرها من النساء في بلادها.

استقرَّ بها المقام مع والدها في سَلْطَنَةِ عُمان في أواخر سنة 1931م، ثم عادت إلى ليبيا سنة 1947م بعد وفاة والدها. اشتغلت أولا بالتدريس ثم بالتفتيش التربوي، شاركت في عدة مؤتمرات، وكانت من الأعضاء المؤسسين لجمعية النهضة النسائية في ليبيا سنة 1958م.

قامت زعيمة بنشر تراث والدها، فقد طبعت ديوانه، وجمعت رسائله ووثائق الجهاد في كتابها «صفحات خالدة من الجهاد الليبي»، ولها عدة مقالات منشورة في الجرائد والمجلات.

تزوجت الشيخَ أبا الربيع سليمان بن صالح بن عُمر الباروني[1] الذي تولى

---

1) أبو القاسم الباروني، المنتخبات الشعرية في الحرب الطرابلسية، مطبعة وورشة تجليد الأنوار، 1946م.

القضاء في ليبيا ـ مؤلف كتاب «مختصر تاريخ الإباضية» ـ (ت:1382هـ/1962م)، ثم انفصلت عنه بعد حوالي سنة لتتفرغ لتربية أبناء أخيها إبراهيم، توفيت بتاريخ 5 أبريل 1976م، ولم تترك أية ذرية.

4 ـ **عزيزة**: عملت في التدريس، وتعتبر من الرعيل الأول في مجال التعليم بالنسبة للمرأة الليبية، تَزَوَّجَتْ ابن عمها عمرو بن أحمد الباروني، ولها العديد من الأولاد والبنات.

سادسا - أصل العائلة البارونية:

أَقْدَمُ مَنْ عُرِفَ ممن لَقَبُهُ «الباروني» في جبل نفوسة هو الشيخ أبو هارون موسى بن هارون بن بالول الباروني (ق 4 هـ). وقد أشار الباروني إلى ذلك في رسالة أرسلها إلى أحد الأوروبيين سنة (1339هـ/1921م)، كما ذكر فيها أن العائلة البارونية أصلها من عُمان، إلا أنه لم يتحقق من اسم الجد الأكبر للعائلة البارونية، وتاريخ انتقاله إلى ليبيا.

والشيخ أبو هارون أصله من «تمْلُوشَايت»[2]، وهو من علماء القرن الرابع الهجري، وَصَفَهُ أبو العَبّاس الشَّمَّاخِي في «سيره»: أنه كان صائم الدهر، مع علم كثير وَوَرَعٍ قوي[3]، أخذ العلم عن أبي محمد خَصِيب بن إبراهيم التَمَصْمِصِي[4]. ولما بَلَغَ

1) بعض الكتاب يظنون أن المجاهد سليمان الباروني (ت 1940م) والقاضي أبا الربيع سليمان الباروني (ت 1962م) مؤلف كتاب «مختصر تاريخ الإباضية»، شخص واحد. وقد رأيت بعضهم ينسب هذا الكتاب إلى المجاهد سليمان باشا، وهذه من الأخطاء التي يجب التنبيه عليها.

2) تَمْلُوشَايْت: من قرى جبل نفوسة بليبيا، بين طَمْزين وتنْدمِّيرة، كانت في القديم زاخرة بأهل العلم والفضل.

3) الشَّمَّاخِي، السِّيَر، الطبعة الحجرية، ص 301.

4) أبو محمد خَصِيب: من تمصمص، قرية تقع جنوب طمزين. لم يبق من أطلالها إلا مسجد

دَرَجَةً عالية من العلم أسندت إليه المشيخة الكبرى في جبل نفوسة، فانتقل من «تملوشايت» إلى بلدة «إِبَنَاين» جهة «كاباو»، وهناك بَنَى مسجده ومدرسته التي تخرج فيها كثير من العلماء، دفن بالقرب من مسجده بـ«إِبَنَاين».

كانت له زوجة صالحة لا تنجب، فاجتمع عليه أهل الرأي من المشايخ وطلبوا منه أن يتزوج، عسى أنْ يُرْزَقَ ذُرِّيَّةً صالحةً تقتفي أثره، وتنفع المسلمين، فَقَبِلَ منهم، وفَوَّضَ إليهم الأمر في الخِطبة، فاختاروا له بعد البحث ابنة العجوز المشهورة بـ«جدة المشايخ» (تبركانت السّدْرَاتِيّة)، فتزوجها، ورُزِق منها بـ: محمد، وإبراهيم، وأبو زكريا، وأبو الربيع.

ومن ذرية أبي هارون تَكَوَّنَت العائلة البارونية المعروفة في جبل نفوسة، والتي انتشرت في عديد من مناطق الجبل.

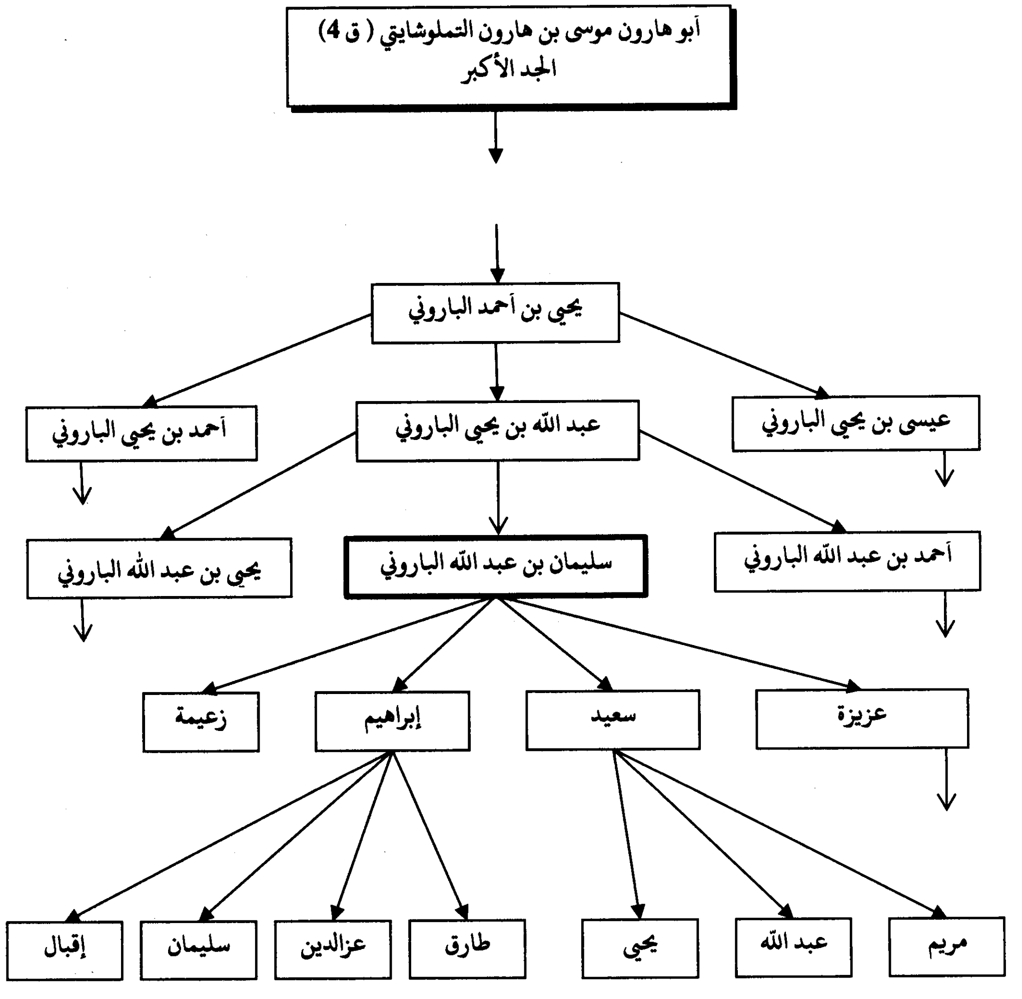
وقد ترجم الشيخ سليمان الباروني في رسالته المذكورة لعدد من أبناء وأحفاد الشيخ أبي هارون، الذين تولوا المشيخة والحكم في جبل نفوسة.

مما سبق يتبين أن الشيخ سليمان الباروني من سلالة علم وفضل، ويتضح ذلك أيضا من قصيدة قالها صديقه وزميله في الدراسة الأديب الشيخ سليمان الجادوي (ت: 1370هـ/1950م) في مدح الباروني وأجداده قال فيها:

أجدادُك الغرُّ في العصر القديم عَلَوْا ... فَافْخَرْ بِأَصْلٍ شَهِيرِ المَجْدِ في الكُتُبِ
مِنْهُمْ أميرٌ، ومنهم عالمٌ، وبهمْ ... أُسْدٌ، وذو المال منهم حاتِمُ العَرَبِ
كَيْفَ لا، ونَرَى التاريخَ مَجَّدَهُمُ ... في كُلِّ عَصْرٍ، وَهَلْ للبَدْرِ مِنْ حُجُبِ؟!

أبي محمد، الذي كان مَدْرَسَةً تخرج فيها كثير من علماء الجبل.

شجرة العائلة البارونية



المرحلة الأولى:
نشأته وتكوينه العلمي

1ـ مولده ونشأته:

ولد الباروني في مدينة «جادو»، من جبل نفوسة، وتاريخ ولادته مختلف فيه، فابنته زعيمة رَجَّحَتْ مولده سنة 1290هـ/1873م، حسب ما ذكرت في كتابها «سليمان الباروني تاريخ موجز»، إلا أنَّ الشيخ أبا اليقظان يقول عن ولادته: أما ولادته فإننا ـ رغم البحث عنها ـ لم نقف عليها بالضبط، إلا أن بعض المسلمين الثقات من حاشيته ذكروا لنا أن ولادته كانت سنة 1287هـ/1870م[1].

2ـ دراسته وشيوخه:

عاش الباروني طفولته في «جادو»، وفيها حفظ القرآن الكريم في مساجد جادو، أخذ الباروني مبادئ العلم والأدب والأخلاق عن والده الشيخ عبد الله الباروني، وغيره من شيوخ بلدته.

أرسله والده إلى تونس سنة 1305هـ/1888م لتلقي العلوم في جامع الزيتونة، وفي أثناء ذلك وَجَّهَ إليه والده قصيدة يحثه فيها على طلب العلم.

ومن بين أساتذته الذين نهل من علمهم في الزيتونة: الشيخ محمد النَّخْلي، والشيخ عثمان المكي شيخ الجامع الزيتوني، كما درس على المشايخ : محمد المكي بن عَزُّوز، والشيخ عمر بن الشيخ، والشيخ سالم بو حاجب، والشيخ محمد النَّجّار.

لبث الباروني خمس سنوات يتلقى العلم في جامع الزيتونة، انتقل بعدها إلى مصر حوالي سنة 1310هـ /1892م حيث قضى فيها ثلاث سنوات يتعلم في الأزهر

1) أبو اليقظان إبراهيم، سليمان الباروني باشا في أطوار حياته، ج 1، ص 47.

الشريف.

وفي سنة 1313هـ/1895م عاد إلى تونس للتداوي والاستجمام في حمام قربص، وزيارة أصدقائه، ومن هناك سافر إلى وادي مزاب، جنوب الجزائر لاستكمال علومه من البحر الزاخر قطب الأئمة، الشيخ محمد بن يوسف أطْفيّش في بني يزقن(1)، حيث مكث عنده ثلاث سنين.

3ـ رحلاته في مزاب:

ونظرا لما امتاز به الباروني من سُمُوِّ الخلق، ولُطْف الأدب، فقد كان محل إجلال واحترام من مشايخ بني مزاب. وأثناء دراسته زار مدينة «القرارة» بوادي مزاب مع أستاذه الشيخ اطفيّش سنة 1314هـ/1896م، ثم زار «العَطْف» سنة 1315هـ/1897م. وفي هذه الرحلات المباركة توطدت علاقاته برجال العلم والفضل بـ«وادي مزاب»، مما كان له أثر كبير في حياته فيما بعد، وبخاصة علاقاته مع أبي اليقظان إبراهيم بن عيسى، شيخ الصحافة الجزائرية، والشيخ أبي إسحق إبراهيم اطفيّش، والشيخ عمر العنق.

بعد ثلاث سنوات من الجد والتحصيل، ختم الباروني رحلته إلى وادي مزاب بزيارة أطلال مدينة «تيهرت»، عاصمة الدولة الرُّسْتُمِيّة، وفيها كتب قصيدته الرائعة التي رثَى فيها «تيهرت»(2)، وتحسَّر فيها على ما كان للمسلمين من أمجاد، وبكى فيها بكاءً شديدا قال فيها:

قِفَا نَبْكِ أَطْلالًا تَقلَّصَ ظِلُّهُ ونَنْدُبُ آثارَ الَّذِينَ بَقَوْا ذِكْرَا

1) بني يَزْقِن، (أو يسجن): إحدى قرى وادي مزاب بجنوب الجزائر، تبعد عن الجزائر العاصمة بحوالي 600 كيلومترا إلى الجنوب.

2) تيهرت: مدينة قديمة تقع غرب الجزائر، كانت في القرون الأولى عاصمة للدولة الرُّسْتُمِيّة.

بَنِي رُسْتُمٍ مَنْ قَامَ بالعَدْلِ مُلْكُهُمْ فأَمْسَتْ بِهِمْ تِيهرْتُ كالرَّوْضَةِ الزَّهْرَا
تَحُفُّ بها الأَنْهارُ والزَّهْرُ باسِمٌ بِرَوْضٍ بَسَاتِينٍ هي الجَنَّةُ الخَضْرَا
أقامُوا مَنارَ الدِّينِ دَهْرًا وَشَيَّدُوا مَعالِمَهُ واسْتَسْهَلُوا البَرَّ والبَحْرَا
فَكَمْ نَظَمُوا جَيْشًا وَكَمْ نَشَرُوا عَدْلًا وَكَمْ هَنَّدُوا سَيْفًا، وَكَمْ ضَرَبُوا تِبْرَا
وكَمْ مِنْ حُصُونٍ أحْكَمُوا ومَعَاقِلٍ وكَمْ مَسْجِدٍ أَحْيَوْا، وكَمْ عَمَّرُوا قُطْرَا
وظَلَّ لِوَاءُ النَّصْرِ يخفُقُ فَوْقَهُمْ وتِيهرْتُ دَارُ العِلْمِ والدَّوْلَةُ الكُبْرَى
فَكَمْ مِنْ أميرٍ تحت ظِلِّ ابْنِ رُسْتُمٍ تَقَلَّدَ فيها السَّيْفَ واكْتَسَبَ الشُّكْرَا
وكَمْ مِنْ إمامٍ كانَ في الدِّينِ حُجَّةً وكَمْ في سِيَاسَاتِ الملُوكِ تَرَى بَدْرَا
فَأَمْسَتْ خَلَاءً تَذْرِفُ الدَّمْعَ حَوْلَهَا عُيُونٌ بِهَا قَرَّتْ وَسَادَتْ بِهَا دَهْرَا
كَذَا الدَّهْرُ خَوَّانٌ فَيُضْحِكُ تَارَةً ويُبْكِي مِرَارًا صَاغَ مِنْ حُلْوِهِ المُرَّا
أَيَا دَارُ كَمْ عُمِّرْتِ والسَّعْدُ مُقْبِلٌ عَلَيْكِ وَكَمْ بالعِلْمَ سَادَتْ بِكِ الغَبْرَا
عَمَرْتِ وعَمَّرْتِ البَلادَ سُوَيْعَة مِنَ الدَّهْرِ كانتْ مِنْ نَوادِرِهِ الغَرَّا
يُشَدُّ إليكِ الرَّحْلُ مِنْ كُلِّ وُجْهَةٍ بِكِ العَيْشُ رَغْدٌ طَيِّبٌ وَبِكِ الأُخْرَىٰ
فَهَلْ فِيكِ مَنْ يَدْرِي وُقُوفَ مُتَيَّمٍ يُكَفْكِفُ دَمْعًا نادِبًا مَرْبَعَ الذِّكْرَا
يَئِنُّ أنِينًا يجرَحُ القَلْبَ وَالكُلَى يُفَتِّتُ أكبَادًا وَلَمَّا يُطِقْ صَبْرَا
سَلامٌ سَلامٌ مِنْ قُلُوبٍ كَئِيبَةٍ تُسَائِلُ أَطْلالًا وَلَمْ تَكْتَسِبْ خُبْرَا
علىٰ مَعْهَدِ الإسلامِ والدِّينِ والهُدَى ورَبْعَ مُلُوكٍ كَانَ مُلْكُهُمُ صَدْرَا
أَلَا أَيُّها الخِلُّ المُرافِقُ قِفْ وَقُلْ حِيَالَ دِيَارٍ طَالمَا جَبَرَتْ كَسْرَا
سَقَى اللهُ «تِيهرْتٍ» بِوَابِلِ رَحْمَةٍ يُجَدِّدُ ذِكْراهَا وَيُحِيي لَهَا فَخْرَا

وَآهٍ وَهَلْ يُحْيِي التَّأَوُّهُ مَيِّتًا ... وَمَنْ ذَا يَرَى عِمْرَانَهَا مَرَّةً أُخْرَىٰ
بَعِيدٌ بَعِيدٌ لَكِنِ اللهَ رَبَّنَا ... قَدِيرٌ علىٰ أَنَّ المُغَيَّبَ لا يُدْرَىٰ(1)



1) سليمان الباروني: الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية، ص 407-409.

المرحلة الثانية:
بداية المحن ومشاريع الإصلاح

عاد الباروني من مزاب، بالجزائر سنة 1316هـ/ 1898م، بعد أن أكمل دراسته عِنْد الشيخ محمد بن يوسف اطفيّش، مشحوناً بالعلم، ومتحمسًا للعمل، لكن أمرا كان ينتظره لم يكن يحسب له حساب، فما إن وصل إلى بلده حتى تلقفته المخابرات التركية بوشاية من بعض الحُسّاد، فأدخلته السجن. وكانت هذه هي المحنة الأولى في حياته، وتفصيلها فيما يلي:

المحنة الأولى:

أرسل الباروني متاعه إلى ليبيا قبل سفره، فقامت السلطات التركية بتفيشه فوجدوا فيه بعض المراسلات التي تَنْتَقِدُ الدولة العثمانية، كما أُشيع عنه أنه كان يخطط لإقامة إمامة إباضية في جبل نَفُوسة، فاعتُبِر ذلك دليل على تآمره على الدولة العثمانية. وبمجرد وصوله إلى ليبيا قادما من تونس قامت السلطات التركية باعتقاله وحبسه.

لَبِثَ الباروني في السجن شهرين ونصفا، قبل أن تَثْبُتَ براءته، وقد أثار سجنه نفوس أهل الجبل لما له من احترام بينهم، ثم أُطْلِق سراحه بكفالة وأرسل إلى الجبل حيث قوبل باستقبال كبير من أهالي المنطقة، إذ رافقه خمسون فارسا من أعيان الرحيبات ونفوسة فسّاطُو، بعد أن برأه مجلس الاستئناف بالأكثرية.

فرح أهل طرابلس والجبل ببراءته، وأقاموا الولائم والاحتفالات ابتهاجا بإطلاق سراحه. لكن بعد عامين من صدور الحكم، جاء الأمر بنقض البراءة، وإعادة قضيته إلى المحكمة من جديد، فأعيد إلى السجن وحُكِم عليه بخمس سنوات.

وقد أَثَّرَتْ هذه الحادثة في نفسه، وخصوصا أنه سُجِن مع المجرمين، والمنفيين السياسيين من تركيا. وبعد عام من سجنه وبمساعي من والده وأعيان الجبل ووالي طرابلس «حافظ باشا» تَمّ إخراجه من السجن بضمان مالي، على أن يبقى تحت المراقبة.

يقول الباروني عن هذه الحادثة:

«اتهمتني حكومتنا السَّنِيّة وأنا قادم من مصر فالجزائر فتونس بسوء النية نحوها، لوشاية من أرباب الأغراض يعلمهم الله (والله يعلم أَنِّي بريء)، فَقَبَضَتْ على ما سَبَقَنِي من متاعي إلى طرابلس، وَوَجَدَتْ فيه بعض أوراق ومكاتبات، فُسِّرَتْ بعضُ عباراتها بما شاءتْ، وأَوَّلَتْ المبهمَ منها كما أرادتْ، وبمجرد وصولي أَوْقَفَتْنِي في دائرة البوليس ممنوع الاختلاط، وتشكلت لجنة مخصوصة لأخذ التحقيقات مِنِّي، فهاج الرَّأْيُ العام، واستاءَ العقلاءُ لِمَا علموه من إخلاصنا وصِدْقِنَا، وكادتِ المسألةُ تؤول إلى ما لا تُحْمَدُ عاقبته. ثم تقررتْ براءتي بالأكثرية من مجلس الاستئناف، بإشارة من دولة الوالي «هاشم باشا» إطفاءً للحركة، وتسكينا للخواطر مُؤَقَّتًا في الحقيقة، على شرط أنْ أقدمَ كفالة معتبرة يضمنها حضرة والدي، وأن أحلف اليمين اللازم على المصحف. وقد وقع كل ذلك في مجلس خاص بالمتصرفية».

ثم يقول بعد أسطر: «ما مضت سنتان تقريبا من نيلي للبراءة حتى صدر الأمر من المرجع العالي بنقضها، وعزل أعضاء مجلس الاستئناف الحاكمين به ـ عدلا لا محاباة أو انتفاعا ـ بسبب الوشايات التي تكاد تكون (تنزيلا من حكيم حميد) لا تقبل النسخ ولا التحقيق، وآل الأمر بعد مدة من صدور الأمر إلى إحضاري بين صفوف العساكر المسلحة، تحت رئاسة ذي الرفعة «محمد بيك الأسير» الشامي (قائمقام فَسَّاطُو) في مدة الوالي «حافظ باشا»، ذلك الشهم المتعفف الميال للإصلاح والحق، (وكان ما كان)، وفي الحال بلّغ إليّ الحكم بالإبعاد خمس سنين، وبمساعي الوالي وغيره قُبَلت مني ضمانة من معتبري الولاية والمتصرفية وبقيت تحت الرقابة».

وفي سجن القَلْعَة قال قصيدة في حق «حافظ باشا»، الذي كان له أكبر الفضل في إخراجه من السجن، ومطلعها[1]:

الرَّوْضُ باكَرَها الغَمامُ وهَزَّها   روحُ النَّسِيمِ فَغَنَّتِ الأطيارُ
وتعانَقَتْ أغصانُها وتَبَسَّمَتْ   مِنْها الزُّهُورُ وفاحتِ الأَنْوارُ
وبَدَا لألحانِ الحَمَامِ تَرَنُّمٌ   بِاسْمِ الجَلِيلِ المجْتَبَى المُخْتَارُ
وَالِي الوِلايَةِ «حافِظْ بَاشَا» الَّذِي   مِنْ حُسْنِ سِيرَتِهِ المجَالِسَ حَارُوا

مشاريعه الإصلاحية:

خرج الباروني من السجن، وبقي تحت مراقبة السلطات التركية، إلا أن ذلك لم يُعِقْهُ عن خدمة العلم والمجتمع، والتضحية والبذل والعطاء، فقد كان الجبل في تلك الفترة يعيش مرحلة من التخلف والانحطاط العلمي، فَوَجَّهَ جُهْدَهُ نحو التأليف ونشر العلم، وبدأ مشاريعه الإصلاحية، وكان من أعماله في هذه المرحلة ما يلي:

1ـ تجديد مسجد «جادو»

قام مع إخوانه بتجديد مسجد «جادو»، وفيه قال قصيدته المشهورة:

وَجَبَ الثَّنَاءُ علىٰ جماعة «جادو»   إذْ شَيَّدُوا بَيْتَ الإله وجادُوا
قَدْ وَسَّعُوهُ وَجَدَّدُوا مِنْ أَصْلِهِ   وتَسَارَعُوا لِبِنَائِهِ وَانْقَادُوا
لله دَرُّ عِصابَةٍ قَدْ سَبَّبُوا   بِبِنَائِهِ وتَعاضَدُوا وارْتَادُوا
بالله مَا أَحْلَى الوفاقِ إذا بَدَا   بينَ الأَنامِ وحَفَّهُ الإسْعَادُ
يا مَسْجِدًا زانَ البلادَ بحُسْنِهِ   وتَبَاشَرَتْ بمَشِيدِهِ العُبَّادُ

1) القصيدة مع كامل القِصّة في ديوانه.

لا زِلْتَ مَنْبَعَ كُلِّ خَيْرٍ عَامِرًا ... يَأْوِي إِلَيْكَ الرَّاكِعُ السَّجَّادُ
وحَمَائِمُ الأَذْكَارِ تَهْتِفُ دَائِمًا ... بِرِيَاضِ حُسْنِكَ وَالهَنَا يَزْدَادُ
يا لَيْتَ شِعْرِي لَوْ رُزِقْتَ بِعَالِمٍ ... يَشْفِي الغَلِيلَ وَشَأْنُهُ الإِرْشَادُ

2ـ تأسيس المدرسة البارونية بـ«يفرن»:

كانت في يفرن مدرسة علمية أنشأها المصلح الكبير الحاج سالم أبو الهُول اليفرني عام 1213هـ/1798م، وكانت لها أوقاف كثيرة في تونس وغيرها، ثم تداعت بعد وفاته إلى الخراب، وتلاشت أوقافها بالبيع وغيره، خصوصا بعد احتلال فرنسا لتونس. فقام الباروني بتجديدها، وأَسَّسَ على أنقاضها مدرسةً سُمِّيَتْ بالمدرسة البارونية، تقع الآن في قرية «البخابخة». وهذه آثارها كما في الصورة.



آثار المدرسة البارونية في قرية البخابخة بيفرن

وفي ذكرى المولد النبوي الشريف، 12 ربيع الأول عام 1322هـ/1904م أقيم حفل بمناسبة افتتاح المدرسة تحت إشراف والده الشيخ عبد الله الباروني.

قام بالتدريس في المدرسة العديد من مشايخ الجبل البارزين، منهم الشيخ عمرو بن عيسى التندميرتي والشيخ صالح الجالي وغيرهم، وتخَرَّج في هذه المدرسة

العديد من حفظة القرآن الكريم، والفقهاء والمشايخ من أبناء نفوسة وجربة.

وقد أشار الباروني في إحدى قصائده إلى بعض المواد التي كانت تدرَّس في المدرسة وهي: القرآن الكريم، والحديث، وأصول الفقه، وعلم الكلام، وعلوم البلاغة، والصرف، والمنطق، والإنشاء، واللغة.

وقد توقفت المدرسة عن أداء رسالتها فترة الاحتلال الإيطالي لليبيا سنة 1324هـ/1911م، وهي الآن مهملة وفي طريقها إلى الخراب والاندثار، إذا لم تنقذها أيادٍ مخلصة من أبناء يفرن، يقومون بصيانتها وتهيئتها من جديد، لتواصل الرسالة التي بُنِيَتْ مِنْ أجلها.

3ـ المكتبة البارونية بـ«يفرن»:

أنشأ الباروني مكتبة بالقرب من المدرسة، اشتملت على كثير من نفائس الكتب، وقد أشار إليها في إحدى قصائده.

المحنة الثانية:

لم تتوقف السلطات التركية عن مراقبة الباروني، فقد كانت مخابراتها تراقب بريده وتفتح رسائله. ولم يتوقف جواسيسها عن نشر الإشاعات المغرضة عنه. وفي سنة 1324هـ/1906م تَلَقَّى والي طرابلس (رجب باشا) أمرا بتوقيف سليمان الباروني، وإرساله إلى تركيا، وكان الوالي صديقا للباروني، فقام بالاتصال به وأبلغه الخبر، ونصحه أن يَخرج إلى تونس أو مصر، قبل أن يُعْتَقل ويُرسَل إلى تركيا، ولم يكن للباروني خيار آخر، بعد أن ضاقت به السبل، فقرر الذهاب إلى مصر، وعزم على عدم العودة إلا إذا تبدلت الأحوال، وقال قصيدته[1] التي ودّع فيها الوطن:

1) ديوان الباروني، ص 61.

وَدَاعًا يا ديار العِزِّ حَتَّى ... أعُودَ إليكِ في أَهْنَا نَهَارِ
إذا ما نحو قُطْرُكِ مُدَّ خَطٌّ ... حَدِيدِيٌّ إلى تِلْكَ القِفَارِ
ونُورُ الكهرباءِ أتاك يَسْعَى ... وقِيلَ: الماءُ في البَيْدَاءِ جَارِي
وطُهِّرَتِ العُيُونُ وقامَ حِزبٌ ... بَمَعْدِنِكِ النَّفِيس وبالأَثَارِ
وشُيِّدَتِ المدارِسُ واسْتَقَامَتْ ... رجالُكِ واكْتَسَتْ ثَوْبَ الفَخَارِ
وخَاطَبَ فيكِ بـ«التِّلِفُون» خِلٌّ ... يريدُ البَحْثَ عَنْ حالِ التِّجَارِ
وحُرِّرَتِ الجرائِدُ واسْتَعَدَّتْ ... مطابِعُهَا إلى نَشْرِ القَرَارِ
ورُقِّيَتِ المصانِعُ واسْتَفاقَتْ ... شَبِيبَتُكِ الحَلِيفَةُ للدِّيَارِ
وجابَ الشَّهْمُ مِنْها الأرضَ عِلْمًا ... وخَاضَ بِحَزْمِهِ لُجَّ البِحارِ
وجَارَى في السِّيَاسَةِ مِنْ أُورُوبّا ... رِجَالًا زَاحَمُوا قُطْبَ المدارِ
وأَبْدَى الكَدّ مخترِعًا مُجِدًّا ... يَجُرُّ النَّفْعَ مِنْ تحتِ السِّتَارِ
هناك تَكُونُ يا وَطَنَ المعَالِي ... غَزِيرَ العِلْمِ مُجْتَمِعَ النُّضَارِ
يَسُودُ المرْءُ فِيكَ يَنَالُ عِزًّا ... يَحُوزُ الأَمْنَ يَطْمَعُ بِانْتِصَارِ
أَلَا يَا قَوْمِ قَدْ نِمْتُمْ طَوِيلًا ... وهِمْتُمْ بالجَهَالَةِ في البَرَارِي
فَهَلَ مِنْ يَقْظَةٍ تَشْفِي غَلِيلًا ... وَتَمْحُو مَا اسْتَوَى مِنْ سُحْبِ عَارِ
فَهُمُّوا واصْدُقُوا فالصِّدْقُ فِيكُمْ ... عَرِيقٌ واحْفَظُوا حَقَّ الدِّيَارِ
وَإِلَّا فَالوَدَاعُ وكُلُّ قُطْرٍ ... بِهِ الإِسْلَامُ يَصْلُحُ للقَرَارِ

نشاط الباروني في مصر:

وفي مصر أتيحت له فرصة الاستفادة من الحركة العلمية والأدبية والثقافية، وتوطدت علاقاته بمشاهير الأدباء والعلماء؛ أمثال مصطفى لطفي المنفلوطي،

والشيخ طنْطاوي جوهري، وإسماعيل صَبْري وغيرهم، كما اتصل بكثير من الجمعيات، وكانت له صلات مع أعضاء الحزب الوطني الذي كان يرأسه مصطفى كامل، وتأثر بشكل كبير بحركة الإصلاح الديني التي بدأها الشيخ محمد عبده.

وقد بدأ نشاطه الفكري بالكتابة والطباعة والنشر، بإنشاء مطبعة طبع فيها مجموعة من الكتب منها: ديوان شعره. وكتابه «الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية» وغيرها من الكتب التي سيأتي ذكرها.

كما أصدر جريدة سماها «الأسد الإسلامي»، لكنها صودرت بعد ثلاثة أعداد. وفي هذه الجريدة كتب مقاله المشهور بعنوان «الجامعة الإسلامية» ووضع في نهايته مجموعة من الأسئلة عن كيفية توحيد المسلمين وأرسل منه نسخا إلى كل العلماء والمفكرين والمصلحين في كل البلاد الإسلامية.

وفي نفس الوقت وهو في مصر، كان يراقب ويتابع ما يحصل في العالم الإسلامي من تغيرات وتطورات، حيث كانت إيطاليا تستعد لاحتلال ليبيا.

الباروني في مجلس المبعوثان:

منذ نهاية القرن التاسع عشر الميلادي بدأت التيارات القومية في تركيا تتصاعد، والمعارضة تتنامى، وأصوات المطالبين بالديمقراطية تتعالى، مما أَرْغَمَ الحكومة العثمانية على إصدار دستور جديد في 17 جمادي الآخرة 1326هـ/24 يوليو 1908م، سُمِّي «الدستور العثماني». هذا الدستور هو فتح بابا للباروني للرُّقِيِّ إلى أعلى المراتب، فقد كان من نصوص الدستور إنشاء مجلس المبعوثان (البرلمان)، الذي يتكون من ممثلين من كل أقاليم الدولة العثمانية.

وتحت إلحاحٍ ودَعْمٍ من أهالي الجبل رَشَّحَ البارونيُّ نَفْسَهَ لعضوية المجلس ممثلا عن الجبل، وقد فاز بأغلبية ساحقة، ولما تَمَّ تعيينه رسميا في المجلس سافر إلى تركيا، وهناك تعلم اللغة التركية في شهرين كما يقول في مذكراته، وساهم من خلال

عضويته بأفكاره النافعة، وقام بعمله بهمة واقتدار.

وفي تركيا تعرَّف على كثير من رجال الفكر والسياسة البارزين من مختلف الدول العربية، وعلى زعماء «منظمة تشكيلات مخصوصة» التي لعبت دورا بارزاً في الحرب الليبية الإيطالية. وكان لوجوده في مجلس المبعوثان أثر كبير على مسيرة الجهاد ضد الاحتلال الإيطالي لليبيا كما سيأتي.



المرحلة الثالثة:
مرحلة الجهاد ضد الاستعمار الإيطالي

رغم أن هذه المرحلة تعتبر من أهم مراحل حياة المجاهد سليمان الباروني فإن الحديث عن تفاصيل جهاده، ودوره في مقاومة الاستعمار الإيطالي يحتاج إلى مجلدات، كما يستلزم كثيرا من الوثائق والمراجع والخرائط التي لا أملكها، ولا يمكن في هذا الكتاب الصغير أَنْ أُوفِّي الموضوعَ حَقَّهُ، ولذلك سأكتفي بذكر بعض الأحداث الهامة في هذه المرحلة، التي امتدت حوالي تسع سنوات، وللقارئ الكريم أن يعود إلى المراجع المذكورة في ثَبْتِ المصادر، لمن شاء أن يتوسع في فهم هذه المرحلة. وسأقتصر في هذا الكتاب على ذكر دور الباروني في جهاده ضد الاحتلال الإيطالي، ولا يعني هذا التقليل من دور بقية القادة والزعماء الذين قاوموا الاستعمار في كل مناطق ليبيا، لكن طبيعة الكتاب اقتضت الاختصار.

التمهيد لاحتلال إيطاليا لليبيا:

قامت إيطاليا بتحركات متنوعة للتمهيد لاحتلال ليبيا، فقامت بفتح فرع لبنك روما في طرابلس، وتعيين جواسيس في كثير من مدن ليبيا، كما بَدَأَتْ بنشر دعايات ضد السلطة العثمانية؛ منها أن تركيا تعرقل المصالح الإيطالية في ليبيا، وأنها لم تقم بأي إصلاحات فيها، وفي نفس الوقت أخذت تحث سفراءها في الخارج على إقناع الحكومات الأوروبية بغض الطرف عن غزو ليبيا عسكريا.

في يوم 27 سبتمبر 1911م سَلَّمَتْ الحكومة الإيطالية عن طريق سفيرها بتركيا إنذارا رسميا إلى «حَقّي باشا» رئيس الوزراء العثماني يتضمن وضع حد لحالة الإرباك والإهمال التي تتعرض لها ولايتا طرابلس وبرقة، وطلبت رَدًّا سريعا في أربع وعشرين ساعة.

ولم تكن إيطاليا تنتظر رَدًّا عن هذا الإنذار، لكونها عازمة على احتلال

ليبيا، واستعدادها للحرب قائم على قدم وساق، ولم تكن تلك الرسالة إلا إشارة من إيطاليا لتركيا بعدم التفكير في المقاومة، وتسهيل عملية الاحتلال. وجاء الرد بعد يومين بعدم تَخَلِّي الدولة العثمانية عن طرابلس وبَرْقة، فاعتبرت إيطاليا أنَّ الردَّ جاء متأخرا، وأنه نوع من المماطلة، فقامت بإعلان الحرب، وبإرسال سفنها الحربية إلى شواطئ طرابلس.

كان سليمان الباروني في إسطنبول بتركيا سنة 1911م، بصفته عضوا في مجلس «المبعوثان»، وكان يتابع باستمرار أخبار العالم الإسلامي، وتحركات الأوروبيين، ويعرف خُبْثَهُمْ، ويدرك أن الدولة العثمانية في حالة ضعف، وأن الأوروبيين يسعون إلى إضعافها، بتقطيع أَوْصالها، وفصل بعض ولاياتها عنها، وقد بدأ الفرنسيون باحتلال الجزائر سنة 1830م، ثم تونس في سنة 1881م. ثم احتل الإنجليز مصر سنة 1882م، وكان الدور القادم على ليبيا التي كانت من نصيب إيطاليا، التي احتلتها سنة 1911م.

وقبل إعلان الحرب بفترة قصيرة، جاء الباروني خبر وفاة والدته وهو في تركيا، فسافر إلى طرابلس لتعزية والده[1]، وخلال وجوده هناك وصلته الأخبار بعزم إيطاليا على غزو ليبيا، وفي تلك الأجواء كتب قصيدة في ستة وثلاثين بيتا مطلعها:

نَصُولُ إذَا حَانَ الدِّفاعُ ولا نَرَى ... جَزاءً مِنَ المْوْلَى سِوَى جَنَّةِ الخُلْدِ
نُحِبُّ اللِّقَا لا نَبْغَضُ الطَّعْنَ إنْ يَكُنْ ... نِضَالًا عَنِ الأَوْطانِ وَالدِّينِ وَالمجْدِ
هَنِيئًا لِمَنْ أَمْسَى صَرِيعًا مُجَاهِدًا ... لَهُ حُلَّةٌ مِنْ أُرْجُوانٍ علىٰ «الجُرْدِ»
فَيَا مُغْرَمًا بِنَا تَقَدَّمْ لِفِتْيَةٍ ... تَرَى المَوْتَ فَوْزًا في مُصَادَمَةِ الضِّدِّ[2]

1) أبو اليقظان إبراهيم: سليمان الباروني باشا، ج1، ص88
2) سليمان الباروني: ديوان الباروني، ص 48

بداية الاحتلال الإيطالي:

كان الباروني في جادو عندما بلغه خبر بداية قصف الأسطول الإيطالي لمدينة طرابلس. وقد وَصَفَتْ ابنتُهُ زعيمة في كتابها «سليمان الباروني، تاريخ موجز»، بأسلوبها الرائع يوم وقوع ذلك الخبر على الباروني وعلى أهل الجبل، وما تم في ذلك اليوم من نقاش حول كيفية مقاومة هذا الاحتلال. تقول زعيمة: «رجع إلى بيته بعد العصر، متجَهِّمَ الوجه، وكانت الأسرةُ مثل غيرها من الأُسَرِ في صَمْتٍ، وكأنَّ على رؤوسها الطير، فلم يُقَدِّمُوا له شيئا حتى الماء، فجلس في صَحْنِ البيت ليتوضأ. تقولُ والدتي: كنتُ مع سيدات من أقارب وجيران، فلم يزدنا غير الجواب على تحية المساء، فأخذه السهو، ثم انتبه فعاود الوضوء، ثم عاوده السهو والسرحان، فأعاد الوضوء لثالث مرة، وأذان المغرب يعلو من المسجد المجاور، فانتفض مستغفرًا بصوت مسموع، وجَدَّدَ وضوءه، وخرج ليصلي بإخوانه في المسجد الرئيسي في جادو. فَبَكَيْنَا... متيقنّات بأن الأمر أخطر من صوت المدافع وهجوم عدوٍّ غاشم».

ثم تقول: «ولم يعد إلا منتصف الليل. نعم، وكانت ليلة من الليالي لم ينسها قط، لشِدَّتِهَا وعُنْفِ الصِّدامِ بين الإخوةِ والأحبابِ عَنْ حَقٍّ واضحٍ كالشمس. وهذا الحق الواجب عليهم ـ حسب يقين الباروني ـ هو الجهاد، الوقوف في وجه الأعداء حتى الموت. الجهاد في سبيل الله والوطن.

وفي اليوم التالي كانت طبول الجهاد تصمُّ الآذان، والمنادي ينادي، والأهازيج تفتح أبواب عهد جديد في تلك القمم، التي لم يعلُ فيها غير صوت الله أكبر منذ أكثر من ألف عام»[1].

---

1) زعيمة الباروني، سليمان الباروني، تاريخ موجز، ص 8.

الباروني ينادي للجهاد:

اجتمع الباروني بعد ذلك في جادو مع أعيان فسّاطُو والرّجْبان والزّنْتان والرّجِيبات، ثم قام بإرسال نداء عام في كل قرى الجبل، يستنهض فيه الهمم إلى الانخراط في سلك الجهاد، دفاعا عن دينهم ووطنهم، قال فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم. أيها الناس اعلموا أنه من قضاء الله وقَدَرِهِ أنْ سلط على وطننا امتحانا لنا، دولة خسيسة نصرانية طليانية، تعبد الأصنام، وتنكر الملك العلام، وتستهين بالإسلام، فسَوَّلَتْ لها نفسها الخبيثة الاستيلاء على بلادنا، وغَصْبَ أراضينا ونسائنا، واستخدام أبنائنا كالعبيد، لا بَلَّغَهَا اللهُ ذلك، فكأنها لم تحسب لشجعان فرساننا، ولا لعساكر دولتنا المظفرة حساباً، وها هي أرسلت مراكبها الحربية، وهي الآن واقفة في البحر أمام المدينة، تنتظر الأوامر من دولتها بالهجوم على ولايتنا، وقد استعدَّ إخواننا أهل الشطوط والمدينة لصَدِّ غاراتها، وتشتيت جموعها، وفتحوا دفاتر لتقييد المجاهدين في سبيل الله، وها أنا أيضا من قبل أن نسمع بهم جعلت تنظيما جديدا، وفتحت دفاتر في مراكز القضاء لتقييد المجاهدين في سبيل الله، قَيَّدْتُ فيه اسمي أَوَّلًا فيه مجاهداً «سليمان الباروني» وكافة نَفُوسة على أثري... إلخ».

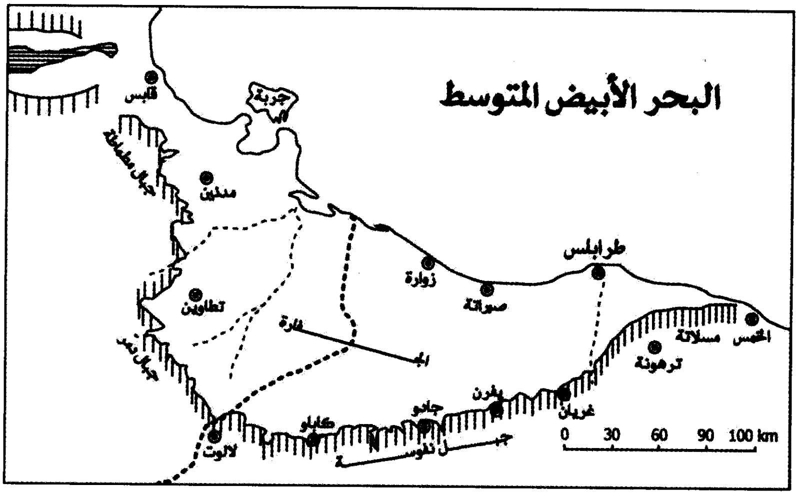
إلى أن يقول:

«وها نحن ندعوكم يا كافة إخواننا: الرُّجْبان والزّنْتان والرّجِيبات والحَرَابة والحوامد أولاد بو سيف، ومنايضة ومحاميد، وغيرهم من القبائل، خصوصا أهالي الجبل الكرام، أهل الشجاعة الغزيرة، والحمية الدينية، والشهامة الأسدية، للقدوم بسرعة لأجل الذَّوْدِ عن الوطن، حمية للدِّين، وذَوْدًا عن الإسلام، وحفظًا لشرف الأهل والأولاد»[1].

1) أبو اليقظان إبراهيم: «سليمان الباروني باشا في أطوار حياته»، ج 1، ص 96.

وقد تجاوبت معه كل القبائل في الجبل، واتفقوا على أن ينسوا الخلافات التي بينهم، ويتجاوزا الخلافات المذهبية واللغوية والعرقية، وعلى عَدَمِ إثارة الفتن القديمة، وأن يقفوا صَفًّا واحدا في مواجهة هذا الاحتلال البغيض[1].

كما أرسل الباروني ومن معه من القيادات في جهة طرابلس تلغرافا إلى السلطات العثمانية باسم سكان طرابلس، أكد فيه عزم أهل الجبل وأهل طرابلس وما جاورها من القرى والبلدان على محاربة الإيطاليين، إلى آخر رجل منهم، وتحمل الباروني قيادة المجاهدين، وتنظيم صفوفهم، والإشراف على احتياجاتهم، كما قام بمراسلة الدول الأوروبية والصحافة الأجنبية بما يحدث في ليبيا.



خريطة جبل نفوسة والمنطقة الغربية من ليبيا والجنوب التونسي

1) التاريخ يعيد نفسه، فقد حدث نفس الأمر، واتحد الناس عندما قامت ثورة 17 فبراير 2011 لمواجهة كتائب القذافي.

موقف تركيا من احتلال إيطاليا لليبيا:

كانت نوايا إيطاليا لاحتلال ليبيا واضحة، وقد مهدت كل السبل لذلك، إلا أن تركيا لم تكن مستعدة لمواجهات عسكرية مع إيطاليا أو غيرها من الدول لما تكبدته من خسائر في آسيا وأوروبا.

وعندما بدأت السفن الحربية الإيطالية تحاصر مدينة طرابلس، أصبح موقف الحامية التركية في طرابلس في حرج شديد، فقد كان قائد الحامية ووالي طرابلس «نشأت باشا» مُصِرًّا على المواجهة، ولكنه لا يرغب في التصرف لوحده دون أن يتلقى أمرا من قيادته في تركيا، إلا أنه لمّا طلب منه قائد الحملة الإيطالية تسليم المدينة دون مقاومة رفض «نشأت باشا» الطلب، مُعْلِنًا إصراره على المواجهة، فقام بنقل بعض الأسلحة والمدافع والذخائر والمؤن من طرابلس إلى قصر العزيزية، التي تبعد عنها حوالي أربعين كيلومترا جنوب غرب طرابلس، ثم نصب خيمة في «سواني بن يادم»، ينتظر الأوامر من دولته.

ثم جاءته برقية من السلطات التركية بعدم مواجهة الجيش الإيطالي، فبقي في خيمته مهموما حزينا.

وَصَلَ سليمان الباروني ومن معه من المتطوعين من أهل الجبل إلى «سواني بن يادم»، فدخل الباروني على «نشأت باشا» وسأله: ما الخبر؟ فقال له: منعوني من شرف العمل، وأراه البرقية التي وصلته من تركيا. قال الباروني: أما نحن فمصممون على الدفاع، وسنجيب على البرقية معك، وفي نفس الوقت نبدأ الدفاع باسم الدين والوطن، وأنتم معنا.

ثم قام الباروني بتحرير برقية، وأرسل منها نسخة إلى كل المسؤولين في تركيا، عندها تهلل وجه نشأت باشا، وقال: الآن أوافق على تنظيم المجاهدين. وبدأوا في استقبال أفواج المجاهدين المتطوعين من كل مكان، وكان سليمان الباروني ومحمد

فرحات الزاوي يشرفان مع الضباط الأتراك والليبيين على تنظيم صفوف المجاهدين، وتدريبهم. ثم جاءت إجابة البرقية بالموافقة، وبدأت المواجهات مع الإيطاليين.

نشوب المعارك بين المجاهدين والقوات الإيطالية:

واجه المجاهدون ومن معهم من الضباط والجنود الأتراك القوات الإيطالية الغازية متوكلين على الله، مستخدمين ما عندهم من إمكانيات قليلة، فنشبت المواجهة بين إيطاليا والمجاهدين الأبطال، ووقعت معارك ضارية في كثير من المناطق: في شارع الشَّطّ، والهاني في 23 أكتوبر 1911م، وفي «عين زارة» يوم 4 من ديسمبر سنة 1911م، وفي قرقارش يوم 18 يناير سنة 1912 م، وفي قصر بو كمّاش خلال شهر مارس سنة 1912م. ورغم قيام إيطاليا بشنق مجموعة من المجاهدين في طرابلس يوم 6 ديسمبر 1911، لكن ذلك لم يوهن عزيمة المجاهدين، فقد أبلى المجاهدون الليبيون من كل القرى والقبائل بلاءً حسنا في جميع المعارك، رغم نقص السلاح وقلة الذخيرة، وكَبَّدَوا الإيطاليين خسائر فادحة، رُغْمَ تفوق الجيش الإيطالي في العَدَدِ والعُدَّةِ.



شنق 14 مجاهدا في ميدان الشهداء بطرابلس، يوم 6 ديسمبر 1911

ولما أدرك الإيطاليون بسالة المجاهدين وثباتهم، سعوا لإغراء الباروني وإقناعه بالاتفاق معهم، والتسليم للأمر الواقع، فأرسل إليه الجنرال «سالساتوما» رسالة بهذا الخصوص مؤرخة في يوم 16 يناير 1912م، يدعوه فيها إلى الاستسلام، فرد عليه الباروني في غُرّة ربيع الأول سنة 1330هـ/ الموافق 20 فبراير 1912م، برسالة فيها سطر واحد هذا نصها: «إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ، خَاضِعِينَ للعَلَمِ العُثْمَانِيِّ المُقَدَّسِ»[1].

وبعد معركة «الهاني» أرسل الباروني، بصفته قائدا عاما لقوات الجبل، ونائبا في مجلس المبعوثان يطلب من الحكومة العثمانية إعلان الحرب على إيطاليا، غير أن مجلس المبعوثان انقسم بين مؤيد لإعلان الحرب، وبين مُطالِبٍ بالتسليم لإيطاليا، ومع ذلك اسْتَمَرَّتْ مساعي الباروني، إلى أنْ أَثْمَرَتْ في إقناع تركيا بدخول الحرب ضد الإيطاليين، فأصدرت الأوامر لضباطها وجنودها في طرابلس وبرقة بالالتحاق بجبهات القتال، وتقديم المساعدات للمجاهدين في ليبيا.

في سنة 1912م خاض المجاهدون ومعهم الأتراك معارك كثيرة ضد إيطاليا في كل المدن الساحلية، بداية من زوارة غربًا إلى طبرق شرقًا، مرورا بالزاوية وطرابلس، والخمس ومصراته وبنغازي، وغيرها من المدن في شرق ليبيا وغربها، ولم تستطع إيطاليا أن تجتاح الشريط الساحلي، وتتوغل داخل ليبيا إلا في نهاية سنة 1912م، بعد أن أرغمت إيطاليا تركيا على توقيع معاهدة «أوشي لوزان»، والانسحاب من ليبيا في 23 أكتوبر سنة 1912م.

معاهدة «أوشي» وانسحاب تركيا من ليبيا:

كانت إيطاليا تتوقع أن يكون احتلال ليبيا أمرا يسيرا وهَيِّنًا، إلا أنه لما رأت بسالة المجاهدين بعد أن استمرت مقاومتهم لمدة سنة ولم يتحقق لإيطاليا هدفها

1) أبو اليقظان إبراهيم: سليمان الباروني باشا في أطوار حياته، ج1، ص 59.

بالاحتلال السريع لليبيا، قامت بتحريض شعوب البَلْقان ضد الدولة العثمانية، وهاجمت القوات التركية في مضيق الدَّرْدَنِيل، واحتلت بعض الجزر التي كانت تابعة للدولة العثمانية مما اضطر الحكومة العثمانية إلى الخضوع لإيطاليا، والموافقة على عقد صلح معها، عُرِفَ بمعاهدة «أوشي لوزان»، وقد تم التوقيع على المعاهدة في مدينة «لُوزان» بسويسرا في 18 أكتوبر سنة 1912م، ومن أَهَمِّ بُنُودِهَا أن تسحب تركيا حاميتها العسكرية من طرابلس وبرقة، مقابل توقف إيطاليا عن مهاجمة الثغور العثمانية الأُخْرَى، ونظرا لعدم وجود اتصالات لاسلكية في ذلك الوقت، لم يعلم المجاهدون في جهة طرابلس بهذه الاتفاقية إلا بعد ثلاثة أيام من توقيعها، عن طريق القائد التركي «نشأت بك» في طرابلس، بعد أن أبلغته السلطات الإيطالية بذلك.

كانت هذه المعاهدة أسوأ خبر تَلَقَّاهُ المجاهدون في ليبيا، ولخطورة هذه المعاهدة على مستقبل الجهاد، عقد المجاهدون اجتماعا كبيرا في العزيزية يوم 25 أكتوبر 1912م، لمناقشة الأمر، وقد حضر الاجتماع حوالي خمسمائة من أعيان البلاد، من أبرزهم: سليمان الباروني، ورمضان السويحلي، وأحمد المريض، وعبد النبي بلخير، ومحمد فرحات الزاوي، ومحمد بن عبد الله البوسيفي، ومحمد سوف المحمودي، وخليفة بن عسكر، ومحمد فكيني، وعلي الشنطة، وغيرهم من الأعيان، ورؤساء القبائل والمجاهدين.

دام الاجتماع ثلاثة أيام، وحدث فيه نقاش حادّ بين المجتمعين، كان من نتيجته انقسامهم إلى فريقين:

- فريق - وهو الأقل عَدَدًا - يرى ضرورة استمرار الحرب، ولو دون سند من تركيا، مهما كانت النتائج والتضحيات، ومن بين هؤلاء: سليمان الباروني، ومحمد البوسيفي، ومحمد سوف المحمودي.

ـ أما الفريق الآخر ـ وهو الأكثر ـ فكان يرى أن استمرار المقاومة هو ضَرْبٌ من المغامرة، ومن الأفضل مصالحة الإيطاليين. وانتهى الاجتماع دون الاتفاق على أمر واحد.



سليمان الباروني على صهوة جواده وبرفقته حارسه الخاص محمد مَرْزُوق الشُّوشان

كان من نتيجة هذا الاجتماع أن بعض المناطق التي كانت تحت سيطرة الزعماء الذين رضوا بالصلح مع إيطاليا استسلمت للاستعمار دون مقاومة. فبسطت إيطاليا نفوذها عليها. وكان هذا أكبر نَصْرٍ حَقَّقَتْهُ إيطاليا بعد سنة من الكَرِّ والفَرِّ مع المجاهدين، لأنها لم تستطع طيلة سنة كاملة أن تتوغل بعيدا عن السواحل الغربية لليبيا أكثر من 15 كيلومترا، التي هي مدى مرمى مدافعها، بينما استطاعت إيطاليا بعد انقسام رأي المجاهدين في اجتماع العزيزية أن تبسط نفوذها على عشرات الكيلومترات في أيام معدودات، ودون مقاومة تذكر[1]. ففي

1) علي البوصيري علي، المقاومة الليبية ضد الاحتلال الإيطالي،ص2 -24.

خلال شهرين شمل الاحتلال منطقة الساحل بأكملها، و غريان وترهونة. أما الباروني ومن معه فقد انسحبوا بعد مؤتمر العزيزية إلى منطقة الجبل.

وبذلك نجحت إيطاليا في تفريق كلمة المجاهدين، واحتلال مناطق جديدة، عن طريق تلك الاتفاقية المشؤومة، غير أنّ سليمان الباروني ومن معه عزموا على مواصلة القتال، فَكَوَّنُوا جبهة وطنية حربية لصَدِّ الزحف الإيطالي نحو الجبل والجنوب.

إيطاليا تساوم الباروني:

وعندما شعرت إيطاليا بخطورة الموقف وما قد يترتب عليه من مقاومة عنيفة، لجأت إلى وسيلة أخرى لتفريق المجاهدين، وهي الإغراء بالمال.

حاولت إيطاليا مساومة سليمان الباروني وبعض الزعامات الأخرى على ترك المقاومة، مقابل مبالغ مالية كبيرة، ورغم أن إيطاليا استطاعت أن تجذب إلى صفها أو تُبْعِد بعض ضعاف النفوس وطلاب الدنيا، لكن الزعيم رفض كل إغراءات إيطاليا، مما دفع قائد القوات الإيطالية إلى إرسال رسالة إلى والد الباروني، الشيخ عبد الله بن يحي الباروني بتأريخ 23 نوفمبر 1912م، ذكر فيها أن إيطاليا تحترم الدين الإسلامي، وتراعى حرمة النساء، وأنها قامت بأعمال مفيدة في البلدان التي احتلتها، وطلبت منه حقنا للدماء أن يقنع ابنه بترك المقاومة ومهادنة إيطاليا[1].

تشكيل الحكومة الوطنية:

بعد أن قرر سليمان الباروني ومن معه من المجاهدين مواصلة الجهاد، رأوا ضرورة تشكيل حكومة وطنية لقيادة الجهاد وتنظيمه، وقد اختير سليمان الباروني رئيسا لهذه الحكومة التي كان مقرّها بيفرن، وبعد تشكيل الحكومة سعى الباروني

1) زعيمة الباروني، صفحات خالدة من الجهاد الليبي، ص 266.

إلى تنظيم البلاد تنظيما جديدا، حيث شرع في تعيين القضاة والمفتشين والكتاب والمتصرفين، وأنشأ فِرَقًا من المشاة والفرسان، وقام بتنظيم البريد وخطوط الهاتف، وفتح مكاتب خاصة في جميع الجهات، كما نَظَّمَ جبهة لمقاومة الإيطاليين، وحَوْلَ هذه الجبهة يقول الباروني في مذكراته:

«وأسّستُ خَطّ حرب مواجها للقوات الإيطالية، يبدأ من ورْفلة، مارًّا أمام غِرْيان، والزَّغْترية، ومنطروس، وبير الخشب جهة العزيزية، ويمر أمام صرمان، والعجيلات، والعلالقة، وزوارة، وبلاد الساحل التي التحق بنا أهاليها كافة»[1].

كما قام الباروني بإبلاغ الدول الكبرى بإنشاء الحكومة، وراسل الصُّحُفَ وأَرْسَلَ وفدا إلى أوروبا للسعي عند حكوماتها لنيل الاعتراف منها[2].

لكن إيطاليا لم يُرْضِها ما فعل الباروني، وسَعَتْ إلى عزل هذه الحكومة وحصارها، وقطع الإمدادات عنها، بالاتفاق مع فرنسا من جهة الغرب، وإنجلترا من جهة الشرق، فقامت فرنسا بمراقبة الحدود مع تونس، وعدم السماح لأي شيء بالدخول إلى الجبل، كما مَنَعَتْ خروج اللاجئين إلى تونس.

عندما علم الباروني بذلك، أدرك بحكمته وحُسْنِ تَدْبيره بأن مواصلة الجهاد بعد أن تم التضييق عليه من كل الجهات لن يُفِيد كثيرا، ولن يزيد إلا من سَفْكِ كثير مِنَ الدِّماءِ، فأرسل إلى إيطاليا يخبرها برغبته في التفاوض، فوافقت إيطاليا على ذلك، وأرسلت وَفْدًا إلى تونس ليقوم بالتفاوض مع ممثلي الحكومة الوطنية، لكن إيطاليا كانت تسعى للاستفادة من الوقت من أجل الاستعداد للقضاء على المجاهدين، فكانت تماطل في إبداء موقفها.

وقد أدركت إيطاليا أنها لن تقدر على شَلّ حركة المجاهدين إلا بزرع الفتنة

1) أبو اليقظان إبراهيم: سليمان الباروني باشا في أطوار حياته، ج1، ص102.
2) أبو القاسم الباروني، حياة سلمان الباروني، ص 47.

بينهم، وتجنيد بعض العملاء الليبيين، الذين أغرتهم بالمال، وباعوا أنفسهم ووطنهم لإيطاليا. ولَمَّا عَلِمَ الباروني بذلك أرسل رسالة طويلة إلى واحد منهم ـ قبل أسبوع من معركة جندوبة ـ ينصحه فيها بالتخلي عن مساعدة إيطاليا قال في آخرها:

«إنَّ رجالَ إيطاليا عقلاءُ متنوِّرُونَ، يعرفون قِيَمِ الرجالِ بأعمالهم، ولا خيانة عندهم أعظم من تسليم الأوطان (بالمال)، فهم يعاملون فاعل ذلك معاملة الخائن، ولو بعد زمن، وإنهم لمصيبون في ذلك.

تَفَكَّرَ بالله مَلِيًّا في نصيحتي هذه، التي لم أقصد بها إلا إِحْيَاءَكَ، واعْتَقِدْ أنَّ الموتَ مرَّةً واحدةً عند جميع الناس ولابد منه، طالَ العمر أو قَصُرَ، وهو محدودٌ لا ينقصه إقدامٌ، ولا يزيده إحجامٌ، وما بين الحالتين إلا شرفٌ خالدٌ، أو إهانةٌ لا مُنْتَهَى لها. 7 ربيع الثاني 1331هـ سليمان الباروني»(1).

معركة جَنْدُوبَة:

أدركت إيطاليا أن استعمار ليبيا ليس أمرًا هَيِّنًا، كما كانت تظن أول مرة، فحشدت قواتٍ كثيرةً لقتال المجاهدين، ودارت معاركُ ضارية بينها وبين المجاهدين، أعنفها كانت معركة جَنْدُوبَة، التي وقعت في منطقة «الأصابعة» قرب غريان، وكانت معركة حاسمة في تاريخ الجهاد الليبي، إذ قامت إيطاليا بتجميع كلّ قواتها وتركيزها في هذه المعركة، من أجل القضاء على المجاهدين، بدأت المعركة في صبيحة يوم الثالث والعشرين من مارس سنة 1913م، وتولى قيادة المجاهدين فيها الزعيم سليمان الباروني، وقد نجح المجاهدون بادئ الأمر في تطويق القوات الإيطالية، ولكن نتيجة الكثرة الهائلة لقوات العدوّ، ونفاد الذخيرة من المجاهدين، أدى ذلك إلى انسحاب قسم منهم إلى جهة يفرن، وقسم آخر إلى الجنوب بقيادة

---

1) أبو القاسم الباروني، حياة سليمان الباروني، ص 66-68.

محمد عبد الله البوسيفي، بعد أنْ كَبَّدُوا قوات العدو خسائر فادحة.



سليمان الباروني وفرحات الزاوي ومجاهدون يتدربون على السلاح

لكن المجاهدين بعد انسحابهم عادوا إلى قراهم للعناية بجرحاهم، ونتيجة التعب والإرهاق الذي أصابهم، أصبح من العسير على الباروني أَنْ يجمعهم مرة أخرى، وبذلك تَمَكَّنَتْ القوات الإيطالية من صعود الجبل، وبسط نفوذها عليه قرية بعد أخرى.

وبعد احتلال القوات الإيطالية ليفرن استسلم أغلب المجاهدين، فهاجر كثير منهم بعائلاتهم إلى تونس. أما الباروني فبعد انسحابه من جندوبة إلى يفرن، وصله خبر وفاة والده، فأسرع إلى كاباو، فوصلها يوم 10 إبريل 1913م حيث شيع جثمان والده إلى مثواه الأخير.

وقد حاولت السلطات الإيطالية بعد تَفَرُّقِ المجاهدين القبض على سليمان الباروني، بالاستعانة ببعض العناصر التي خانت أُمَّتَهَا، ولكنَّ الله سَلَّمَهُ، فَتَوَجَّهَ إلى

تونس، للتفكير في الخطوة التالية، فغادر عن طريق نالوت حيث سلم سلاحه إلى السلطات الفرنسية ودخل الأراضي التونسية، وبعد أيام لحقته عائلته برفقة أخيه يحي.

الباروني في تونس:

أقام الباروني بتونس مُدّة سَنَةٍ، يراقب فيها أحوال البلاد، ويقوم ببعض الاتصالات، من بينها الاتصال بالكونت «سفورزا»، حول إمكانية عودة اللاجئين الليبيين من تونس إلى أهاليهم، فكان له ما أراد.

وبعد انتهاء المفاوضات توجه الباروني إلى لندن على متن سفينة تركية، وهناك أجرت معه مجلة «التيمس الأفريقية» مقابلة صحفية، بيّن فيها موقفه حول الجهاد في ليبيا، ودافع عن التهم الباطلة التي روّجها خصومه ضده وأشاعتها الجرائد المغرضة.

وفي نفس الفترة وَصَلَهُ خبر وفاة شيخه محمد بن يوسف اطفيّش (يوم السبت 25 ربيع الثاني 1332هـ/ 21 مارس 1914م) في وادي مزاب، فسافر إلى وادي مزاب لتأدية واجب العزاء لأسرته، ثم اتجه إلى تركيا[1].

استئناف الجهاد:

لَمَّا وَصَلَ سليمان الباروني إلى إسطنبول في ربيع 1914م، عَيَّنَتْهُ الحكومة العثمانية عضوا في مجلس الأعيان العثماني، تقديرًا لمجهوداته المتميزة في الجهاد ضد إيطاليا.

وبعد حوالي خمسة أشهر من وصول الباروني إلى تركيا اندلعت الحرب العالمية الأولى في أغسطس 1914م، فاستغل الباروني نُفُوذَهُ لدى الدولة العثمانية، وبَذَلَ

1) أبو اليقظان، سليمان الباروني في أطوار حياته، ج 1، ص 104-105.

جُهُودًا كبيرة لإقناع الحكومة التركية باستئناف الجهاد في طرابلس، فاستجابوا لطلبه، على أن يكون هناك اتفاق بينه وبين أحمد الشريف السَّنُوسِي، في بَرْقَةَ على طريقة الجهاد.

البارونِي يُسْجَنُ في السَّلُّوم[1]:

سافر البارونِي في غَوّاصة حاملا معه بعض المعدات، وتمكن من الوصول إلى «السَّلُّوم»، واتصل بأحمد الشريف السَّنُوسِي، وأبلغه الغرض الذي جاء من أجله، لكن أحمد الشريف تَصَرَّفَ تَصَرُّفًا غريبا، فقد أَمَرَ بحبسه، ومَنَعَهُ مِنَ الحركة، فبقي في «السَّلُّوم» حوالي سنة ونصف، ولم يُفْرَج عنه إلا بعد أن توسط له محمد إدريس السَّنُوسِي، بعد أن أرسل إليه البارونِي يطلب منه التدخل لإقناع أحمد الشريف، للسماح له بالعودة إلى تركيا، وهذا نص رسالة محمد إدريس السنوسي كما وُجِدَت في وثائق البارونِي:

«جناب المحترم سليمان البارونِي ـ حفظه الله آمين

أما بعد، أهديكم سلامي ولائق احترامي

ثم أَعْرِضُ على جنابكم: إنكم منذ مدة أمرتموني باستعطاف السيد في خصوصكم، فلم أَرَ منه قَبُولًا لذلك في تلك الفرصة. وفي هذا النهار رأيت مناسبة لذلك، وعرضتُ على السَّيِّدِ، وقَبِلَ وأطلق سراحكم.

بهذا لزم إعلامه لديكم. ودمتم محترمين... محمد إدريس السنوسي.

24 ذي القعدة، يوم الاثنين»[2].

---

1) السَّلُّوم: مدينة على الحدود الليبية المصرية.

2) صفحات خالدة من الجهاد، ص 513.

الباروني يُعَيَّنُ واليا وقائدا عسكريا:

بعد أن أُفرِْج عن الباروني عاد إلى تركيا في غواصة، عن طريق النمسا، وفي ذي الحجة من سنة 1334هـ/أكتوبر 1916م، عَيَّنَهُ السلطان العثماني «محمد رشاد الخامس» واليا وقائدا عسكريا على طرابلس وما جاورها، وزَوَّدَهُ بمرسوم سلطاني يحث الأهالي على طاعته، من أجل استرداد البلاد من الإيطاليين، لكنّه لم يرد إعادة مغامرة السَّلُّوم، حتى يتأكد من قبوله عند رؤساء المجاهدين في جهة طرابلس، فأرسل أخاه يحيى ليستكشف له الأمر، فسافر يحيى على مَتْنِ غَوّاصة، والحرب العالمية على أشدِّها، وسفن الحلفاء الحربية تجوب البحر الأبيض المتوسط، لكنَّ الله سَلَّمَهُ، ووصل إلى مصراته، واتصل برمضان السّويحلي، وبزعماء المجاهدين، ففرحوا بمجيئه، ووافقوه إلى طلبه، فعاد يحيى إلى أخيه سليمان يُبَشِّرُهُ بما حدث.

وعند وصول الباروني إلى مصراتة وجد رؤساء المجاهدين منقسمين إلى زعامات متنافسة، والمشاكل بينهم مُسْتَحْكَمَةٌ، خصوصا بين مصراتة التي يتزعمها رمضان السويحلي، وترهونة التي يترأسها أحمد المريّض، فسعى بكل جهده إلى جمع كلمتهم، وقد نجح في ذلك، وتم الصلح بينهم.

كما وجد خلافا بين رمضان السويحلي والسنوسيين في برقة، خصوصا بعد استيلاء الجيش السنوسي على قصر «سرت»، وتهديد مصراتة وورفلة، فقام الباروني بمراسلة محمد إدريس السنوسي يبلغه بمرسوم توليته من قبل الحكومة العثمانية واليا وقومندانا على طرابلس، ويطلب منه تسوية المسألة في سرت، حفاظا على الوحدة الوطنية، فأجابه السنوسي برسالة بتأريخ 8 محرم 1335هـ يقول في آخرها: «وها نحن أمرنا ـ يعني عساكرنا ـ بأن يقفوا بالقصر، وأنتم امنعوا كُلَّ سَفِيهٍ من أي عمل يشين سمعة الإسلام أمام العدو.

نحن لا غرض لنا إلا الاتحاد الإسلامي، وتخليص رقاب المسلمين فقط، كما

نأمل من جانبكم معاونتنا على إطفاء الفتن بين المسلمين، وشدة الضغط على الأعداء، كما أنكم جديرون بذلك، ونحن وأنتم لا فرق بيننا، كلنا مقصدنا شريف، ومحاربون أعداءنا تحت الراية الإسلامية العثمانية، ونرجو الله أن يكون عون الجميع بجاه النبي الشفيع. واقبلوا تحياتي»[1].

غادر البارونيُّ مصراته مع بعض أعيانها إلى «زليتن»، فاستقبلهم أهل زليتن بكل ترحاب، وأعلنوا انضمامهم إلى الحكومة الجديدة، ثم انتقلوا إلى مسلّاتة، مع وفد من مصراتة وزليتن، وجاءته وفود من مناطق أخرى، وسارت الوفود كلها إلى العزيزية مرورا بترهونة، وفرح الناس بتآلف القلوب، ووحدة الكلمة.

وفي «العزيزية» أرسل الباروني دعوة عامة لكل المسؤولين في الولاية لحضور مراسم تلاوة الفَرَمان السلطاني، ولتنظيم جبهة الجهاد لمقاومة إيطاليا.

اتخذ الباروني من «العزيزية» مَقَرًّا للقوات العسكرية في منطقة طرابلس والجبل، وكَوَّنَ جبهة لقتال الإيطاليين، الذين كانوا يرابطون في السواحل، تمتد من مصراته إلي زوارة، ثم قام المجاهدون بغارات منظمة في المناطق التي تحتلها إيطاليا.

الجمهورية الطرابلسية:

بعد نهاية الحرب العالمية الأولى سنة 1918م، وَقَّعَتْ تركيا في أكتوبر من نفس السنة معاهدة الصلح مع دول أوروبا، ومن ثَمَّ أقرت بهزيمتها في الحرب الأولى، وتَخَلِّيهَا النهائي عن ليبيا، وبعدها بشهر، وبالتحديد في 16 نوفمبر 1918م، عقد قادة الجهاد وأعيان المناطق الغربية ووجهائها مؤتمرا بمسجد المجابرة في مسلّاتة، وأعلنوا تأسيس الجمهورية الطرابلسية، ثم انتخبوا أربعة من زعماء المجاهدين لرئاستها، وهم: سليمان الباروني، ورمضان السويحلي، وعبد النبي بلخير، وأحمد المريّض.

1) أبو اليقظان إبراهيم: سليمان الباروني باشا في أطوار حياته، ج1، ص 131.

كما تَمَّ انتخاب مجلس للشورى يتكون من 23 عضوا، برئاسة محمد سوف بك، ثم أُرْسلت بلاغات ورسائل إلى الدول الأوروبية تطلب منهم الاعتراف بها.

كان رَدُّ إيطاليا على قيام الجمهورية الطرابلسية هو إسقاط منشورات عن طريق الطائرات الحربية في أماكن المجاهدين، تتضمن تهديدا ووعيدا، وقد حدثت عدة مصادمات ومعارك، اضطرت إيطاليا على أثرها أن تطلب الدخول في مفاوضات.

الصلح مع إيطاليا:

بدأت المفاوضات الأولية للصلح بين إيطاليا والجمهورية الطرابلسية في مارس 1919م، وانتهت دون الوصول إلى اتفاق مُعَيَّن، ثم استؤنفت في 21 إبريل 1919م، وتم الاتفاق على أن تمنح إيطاليا طرابلس حُكمًا ذاتيًا، تحت مسمى «حكومة القُطْر الليبي الطرابلسي»، وقد وُضع قانون أساسي يتكون من أكثر من أربعين مادة لإدارتها، وتَمَّ التوقيع عليه من قبل زعماء المجاهدين، والحكومة الإيطالية، التي مَثَّلَها الجنرال «تارديتي» وبعض الضباط الآخرين. وتم تشكيل حكومة من عشرة أعضاء، ثمانية من الطرابلسيين، واثنان من الإيطاليين، يرأسها الوالي أو من ينوب عنه.

وبعد التوقيع على الاتفاقية وتشكيل الحكومة، أقيم في طرابلس احتفال كبير بهذه المناسبة، شارك فيها أعضاء الجمهورية، وممثلي المجاهدين، وسُكّان طرابلس، وأقيمت معالم الزينة والأفراح، في كل أنحاء المدينة، ظَنًّا منهم أن الحرب قد انتهت، وأن راية السلام سترفرف على البلاد والعباد.

وبعد أشهر من الاستقرار النسبي في طرابلس، غادر سليمان الباروني طرابلس متجها إلى تركيا في 6 نوفمبر 1919م لقضاء بعض الوقت مع أسرته، وللالتحاق بمنصبه في مجلس الأعيان العثماني.

لكنّ هذا الاستقلال المزيَّف لم يدم طويلا، فإيطاليا لم تفِ بوعدها، خصوصا بعدما شعرت بنوع من الراحة من الضربات الموجعة التي كانت تتلقاها من المجاهدين. ولم تستقر الأوضاع في طرابلس إلا قليلا حتى اختلفت المواقف بين الطرفين، واضطر أكثر من نصف أعضاء الحكومة للاستقالة، فاستولت إيطاليا على الأمور، وأخَذَتْ تغذي الخلاف والشقاق بين المجاهدين، وتزرع بذور الفتنة بينهم، فاستطاعت أن تخلق فتنة بين العَرَبِ والأمازيغ في جبل نفوسة، دفعت كلا منهما للاستعانة بها ضد الآخر، مما تسبب في نشوب حرب أهلية، ذهب ضحيّتها مئات من سكان المنطقة.

كما غَذَّتِ الخلاف بين مصراته بقيادة رمضان السويحلي، وورفلة بقيادة عبد النبي بلخير، الذي انتهى بقتل رمضان السويحلي في ورفلة.

وعندما استلم الدكتاتور «موسيلينى» الحكم في إيطاليا، ألغى القانون الأساسي الذي وَقَّعَتْ عليه إيطاليا من قبل، واعتبره إهانة لكرامة إيطاليا، ثم أمر بِسَنِّ قانون عسكري استعماري جديد لحكم ليبيا.

مؤامرة إيطاليا ضد الباروني:

أما الباروني فقد وصل إلى تركيا في الوقت الذي كانت فيه الدولة العثمانية تلفظ أنفاسها، وما كاد يستريح عدة أشهر حتى طُلِب منه السفر إلى ليبيا للقيام ببعض المهمات، فعاد بعائلته في مارس 1920م إلى طرابلس، ثم انتقل إلى زوارة، فوجد الفتن الداخلية متأججة، والنفوس مضطربة، فَبَذَلَ جهودا كبيرة من أجل الإصلاح، لكنَّهُ لم يُفْلِحْ، فقد كثرت عليه الدسائس، وكانت السلطات الإيطالية لا ترغب في وجوده بليبيا، فاتهمته بأنه المسؤول عن كل هذه الفوضى، لدرجة أن إيطاليا قامت بإجبار بعض الشخصيات التي يعرفها الباروني على التوقيع على رسالة يطلبون منه فيها مغادرة البلاد.

يقول الباروني: «قابلت الوالي فوضع بين يدي قائمة بتواقيع تتضمن ما يزيد عن 150، كلها شخصيات ليبية، بل أصدقاء، أُقْسِمُ غِيَابًا عنهم أنهم لم يسمعوا بها، أو وَقَّعُوها والمسدسُ على صدورهم، فقال لي الوالي: هؤلاء أحبابك وأهلك يطلبون مغادرتك البلاد، وينسبون لك ما كان من التشويش، ونحن نعلم أنك غير ذلك، فحفاظا على حياتك قَبْلَ كُلِّ شيء أرجو منك السفر إلى إيطاليا مثلا، لمدة تهدأ فيها الخواطر، فطلبتُ منه نسخةً من القائمة فقال: اعذرني إنها رسمية، فتأكدتُ أني غير مخيَّرٍ، فسافرت إلى تركيا مارا بإيطاليا»[1].

الباروني يغادر ليبيا نهائيا:

ولم يجد الباروني بُدًّا من تَرْكِ ليبيا والسفر إلى تركيا، ولم يتمكن من العودة إليها بعد ذلك. وقد وصف الباروني لابنته زعيمة لحظة وداعه طرابلس لآخر مرة، بعد ذلك التاريخ بعدة سنوات عندما كان في العراق، قال:

«وقفت في أعلى الباخرة عند إقلاعها من الميناء، وقد خالجني شعور عميق في أني مسوق لا أراها مرة أخرى - يعني طرابلس - فكانت جفوني تمتنع عن الحركة، حتى أشبع من منظرها الحبيب، ولم أنتبه إلى نفسي إلا بَعْد حين، عندما توارت وراء الأفق، وغابت عَنِ الأنظار».

تقول زعيمة: «ثم رَفَعَ بَصَرَهُ إلى أعلى، كأنه يستثير السماء العادلة، وقال وهو يذرع الغرفة بخطوات رتيبة: هل يا ترى يُقَدَّرُ لي رؤيتها مرة أخرى؟ فأردت تخفيف التأثير الذي به فقلت: لو لَمْ تجعلْ شروطًا صعبةً...!

وَقَفَ بِجِدٍّ وقال بصوته الحنون: أترينها صعبة؟ أترين ذلك كثيرا على الله؟ في طَرْفَةِ عَيْنٍ ينجلي كُلُّ غَمٍّ، ويَنْدَحِرُ كُلُّ طَاغٍ، ويَتَحَرَّرُ كُلُّ مَحْكُومٍ. لا تقولي: صَعْبَة!

1) زعيمة الباروني: سليمان الباروني، تاريخ موجز، ص 16.

بل قولي: إنْ شَاءَ الله، وَمَا ذلك على الله بكثير.

ثم جَلَس يستريح وهو يمر بيده على شعر رأسه في هدوء حالم، وتَكَلَّمَ كمن يناجي نفسه: «إن الله لَنْ يُضِيعَ أَجْرَ المخلصين، ستتحرر ليبيا، سيندحرُ العدوّ، وستصبح في ليال زاهرات، وإذا طال العمر سأكون هنالك....ولم أزد أي سؤال ولم يتم حديثه»[1].

1) أبو اليقظان إبراهيم، سليمان الباروني باشا في أطوار حياته، ج1، ص 181.

المرحلة الرابعة:
مرحلة النفي والإبعاد

وصل الباروني إلى تركيا، لكنه وجد الوضع قد تغير، إذ فقدَ منصبه في مجلس الأعيان العثماني بعد الانقلاب الذي قام به مصطفى كمال أتاتورك، الذي استلم مقاليد الحكم في تركيا في 23 أبريل 1920م، عندها حاول الباروني الذهاب إلى الشام أو تونس أو مصر، لكن بريطانيا وفرنسا منعتاه من دخول تلك الدول، فسافر أولا إلى إيطاليا، مستفيدا من لوائح القانون الأساسي، ومن صداقاته ببعض الأحرار الإيطاليين، ولم يطل مقامه بها، إذ أخبره أحد أصدقائه بأن إيطاليا تنوي القبض عليه فسافر إلى فرنسا، وهناك احتجزَتْهُ السلطات الفرنسية، ومنعته من السفر، إذ كانت فرنسا تعتبره من الشخصيات المهمة التي كانت تلاحقها، ولعل إيطاليا هي التي أوعزت للسلطات الفرنسية بعدم السماح للباروني من الحركة.

الباروني في فرنسا:

عاش الباروني في فرنسا بدون مورد مالي، إلا ما يصل إليه من ثمن كتبه وبعض المساعدات الأخوية، وقد استغلَّ وجودَهُ في فرنسا في كتابة المقالات الصحفية، والتعرف على المسلمين من كل البلدان، وحضور الاحتفالات والمناسبات الدينية، والمراسلات مع أصدقائه، ومتابعة الأحوال السياسية في البلدان العربية، وفي نفس الوقت كان يحاول الحصول على إذن لدخول أي من البلدان العربية للعيش فيها، لكن السلطات الفرنسية والبريطانية حالت دون ما يريد.

وبعد محاولات عدة، استطاع الحصول على جواز سفر عن طريق بعض معارفه، فجاء خِفْيَةً إلى تونس في سبتمبر 1923م، ونزل في فندق، وقام بالاتصال بأصدقائه، ومنهم أبو اليقظان، وكان في نية الباروني البحث عن مكان آخر غير فرنسا، ليستقر فيه مع عائلته التي فارقها منذ سنين، وما إن تسامع أحبابه

وأصدقاؤه بوجوده في تونس حتى هرعوا لزيارته والسلام عليه، فطلب الباروني من أحد أصدقائه أن يبلغ السلطات الفرنسية بوجوده في تونس، ورَغْبَتِهِ في البقاء فيها.

استغرب المسؤول الفرنسي وجود الباروني في تونس، وتساءل في دهشة: آلباروني هنا؟ فقال: نعم، جئت أطلب له الإذن لإقامته عندي كضيف، حيث كان صديقا لوالدي. فأجابه الفرنسي: إن كنت تريد أن تبقى حبيبا لنا كما كان أبوك، فانزع يدك من الباروني، وفي نفس الوقت قام المسؤول الفرنسي بتبليغ المخابرات والأمن والسفارة الفرنسية بوجود الباروني، وما مَرَّ من الوقت إلا قليل حتى تَمّ تطويق الفندق الذي نزل فيه، وفرضوا عليه رقابة مُشَدَّدَةً، وحالوا بينه وبين أحبابه الذين فرحوا بمجيئه، والذين كانوا يستعدون لإقامة حفل له، ولكن لم يتم لهم ما أرادوا، فقد أجبرت السلطات الفرنسية الباروني على مغادرة تونس في أول سفينة إلى مرسيليا.

أثار انتشار خبر سوء المعاملة التي قوبل بها الباروني في تونس، وإعادته مُكْرَهًا إلى فرنسا الرأي العام في تونس، إذ إستنكرت كثير من الصحف هذا الفعل برجل مثل الباروني، ومن أبرز تلك الصحف «جريدة الأمة» التي يرأس تحريرها صديقه سليمان الجادوي، كما نشرت صحيفة المنير التونسية يوم 19 صفر 1342هـ/1924م هـمقالا ذكرت فيه أن الشيخ سليمان الباروني قدم احتجاجًا إلى جمعية الأمم ورجال السياسة والقانون جاء فيه:

«منعتني دول الحلفاء الثلاثة (فرنسا وإيطاليا وإنجلترا) من الدخول إلى مستعمراتها، والبلاد التي تحت سيطرتها، مثل الشام وجزيرة العرب (ومنها الحجاز)، وأفريقيا ومنها (مصر)، فاضطررت إلى الإقامة في باريس، بعد أن ذهبت إلى تونس، فأعادتني حكومتها بعد أربعة أيام أقمتها، ممنوع الاختلاط بالناس والخروج من المنزل، تحت مراقبة البوليس. فهل لدول الحلفاء وجه قانوني يسوغ لها ذلك، حتى تحرمني من التمتع بنتيجة الصلح الذي شمل العالم أجمع، مع أني أفريقي

طرابلسي المولد، لي بها أملاك، ولي في مصر مطبعة ومعاملات تجارية من قَبْل الحرب الكبرى، ولا يلائم صحتي الإقامة في أوروبا وغيرها من البلاد الباردة»[1].

الباروني يتخلص من الأسر:

لم ييأس الباروني من محاولات الخلاص من أسر أوروبا، فبعد أن طرق أبواب جميع قناصل الدول للحصول على إذن لدخول تونس أو مصر أو العراق فمُنِع، كتب رسالة إلى «الشريف حسين» ملك الحجاز في ذلك الحين، وكان صديقا له منذ اجتماعهما في مجلس المبعوثان بتركيا، يطلب منه تسهيل أداء فريضة الحج. وأرفق مع رسالته جريدة فيها مقالته التي نشرها ضد المعاهدة الحسينية الإنجليزية، فلما قَرَأَ الشريف حسين رسالة الباروني قال: إن الباروني ما كتب إلا عن حُسْنِ نِيَّةٍ ونصيحة. وفي الحال أمر بعمل الإجراءات اللازمة لتسهيل وصول الباروني إلى مكة، رغم معارضة الدول الأجنبية.

في الطريق إلى مكة:

وفي يوم سفره، أراد أن يبشر إخوانه في وادي مزاب، بهذا الخبر السارّ، فأرسل لهم رسالة يقول فيها: «اليوم ولله الفضل تخلصت من أسر أوروبا، وركبت البحر قاصدا الأراضي المقدسة. وسأدعو لكم ولنفسي بما أرجو من الله قبوله...».

سافر الباروني من مرسيليا ـ بعد أن كان منفيا فيها مدة أربع سنوات ـ على متن سفينة إلى بيروت، عن طريق الإسكندرية وبورسعيد، ولما وصل الإسكندرية كان يرغب في النزول والبقاء في مصر أياما، ليقابل ابنه إبراهيم، وليقضي فيها بعض مصالحه المتعلقة بالمطبعة التي تعطلت منذ نشوء الحرب، ولما علمت السلطات الإنجليزية أن الباروني من ضمن الركاب، وُضِعت عليه حراسة مشددة، ولم يُسمَح له

1) عيسى بن صالح الطيواني، القصائد العمانية في الرحلة البارونية، مخطوط، ص 12.

بالنزول من السفينة، بل إنه عومل معاملة قاسية من بعض رجال الأمن المصري والإنجليزي، وَأَصَرُّوا على أن يبقى على متن السفينة حتى تغادر إلى بورسعيد، وفي بورسعيد أيضا لم يُسْمَحْ له أيضا بالنزول، وبقي في السفينة حتى غادرت إلى بيروت.

ومن بيروت أرسل رسالة إلى أبي اليقظان[1] يقول فيها:

«وها أنذا بعد مُضِيِّ سنة من رجوعي من تونس مارًّا على أبواب مصر (إسكندرية وبورسعيد) قاصدا البلاد المُقدَّسَةَ، برخصة من حكومتها». ثُمَّ ذكر في رسالته تفاصيل رحلته والمعاملة السيئة التي تلقاها من رجال البوليس الإنجليزي والمصري وهو في السفينة في مينائَيْ الإسكندرية وبورسعيد. وفي ختام الرسالة أَوْرَدَ قصيدةً كتبها في بيروت في 21 ذي القعدة 1342هـ/ 23 أغسطس 1924م، يُعَبِّرُ فيها عن شعوره وهو في مصر، منها هذه الأبيات التالية[2]:

هَوِيتُكِ يا مصرُ وهل في الهوى صَبْرُ؟ ... وأنتِ التي يَشْفَى بأدوائِكِ الصَّدْرُ
هَوِيتُكِ إذْ فيك المعارفُ أَشْرَقَتْ ... لَكِ الشُّكْرُ والشَّرْقُ العَظِيمُ لَهُ الشُّكْرُ
هَوِيتُ رِيَاضَ العِلْمِ فِيكِ بِأَزْهَرٍ ... يَعِزُّ بِهِ دينُ الهدى ولَكِ الفَخْرُ
هَوِيتُ خِصالا في رِجالِكِ أَعْجَزَتْ ... مِنَ الغَرْبِ أقطابًا لها عَلَنًا خَرُّوا
هَوِيتُكِ لَكِنْ لا سَبِيلَ إلى اللِّقَا ... وكَيْفَ وبابُ الشَّرْقِ أَغْلَقَهُ الحُمْرُ
مَرَرْتُ علىٰ أبوابِكِ اليومَ نَازِحًا ... وفي النفسِ آمالٌ يَطُولُ بها الشِّعْرُ
مَرَرْتُ على أبوابِ فُسْطَاطِ عِزِّنَا ... وَلَمْ اقْتَرِبْ مِنْهَا وَقَدْ شَادَهَا عَمْرُو
هَمَمْتُ بِوَصْلٍ إذْ تَجَلَّتْ فَلَمْ يَكُنْ ... وكانَ علىٰ الأبوابِ مَنْ عِنْدَهُمْ أَمْرُ

1) كامل الرسالة وتفصيل الرحلة في كتاب أبي اليقظان، ج1، ص 199-204.
2) ديوان الباروني، ص 163.

يَقُولُ: أَلَا لا تَدْخُلُوها فَفِي يَدِي مفاتِحُها والذُّلُّ والطَّرْدُ والقَهْرُ
وَمَا هِيَ لابن البَارُونِيِّ بِمَنْزِلٍ وَلَوْ يَشْفَعُ القُطْبَانِ أَوْ يَسْجُدُ البَدْرُ

الباروني في الأراضي المقدسة:

وصل الباروني إلى الحجاز في 28 من ذي القعدة 1342/أواخر يوليو 1924م، ورحب به الشريف حُسَين أجلّ ترحيب، وأكرمه خير إكرام، وقلده نيشان الاستقلال الهاشمي. وقد وَصَفَ الباروني طريقة الاستقبال في رسالة أرسلها إلى السيد عمر العنق[1]، أحد مشايخ وادي مزاب[2].

وبعد أن أَدَّى الباروني فريضة الحج التي كانت إحدى أعز أمانيه، وحضر المؤتمر الإسلامي، طلب من الشريف حسين أن يتوسط له لدى الإنجليز ليسمحوا له بزيارة عُمان، فتم له ذلك، وسافر على متن سفينة الحجيج العُمانية إلى «مَسْقط»، حيث استقبله وزراء السلطان تَيْمُور بن فيصل والشعب العُماني استقبالا يليق بمقامه، وفي عُمان بدأت المرحلة الأخيرة من حياته المليئة بالأحداث والإنجازات والابتلاءات.

---

1) عمر بن إبراهيم العنق (و~: 1300هـ/ 1882م - ت: 1375هـ/ 1956م). علم من أعلام التربية والإصلاح في وادي مزاب، بالجزائر. ولد بالقرارة، ودرس عند قطب الأئمة محمد بن يوسف اطفيش مع زميليه أبي اليقظان إبراهيم، وسليمان الباروني. اشتغل بالتجارة والتعليم وكان ممن ساندوا الشيخ بيوض في حركته الإصلاحية، وعضوا فعالا في جمعية العلماء الجزائريين. كان على اتصال دائم بالباروني عن طريق المراسلات. انظر معجم أعلام الإباضية، رقم 684.

2) نص الرسالة وتفاصيل الاستقبال في كتاب أبي اليقظان، ج1،ص 204.

المرحلة الخامسة:
مرحلة التمكين والإنجازات

الباروني يصل عُمان:

اهْتَزَّتْ عُمان فَرَحًا بمقدم الباروني، فحين وصوله إلى ميناء مَسْقَط استقبله الوزراء استقبالا بهيجا، أما السلطان تَيْمُور بن فيصل فقد كان غائبا ذلك اليوم، إلا أنه أرسل له برقية تقول: «قدوم مبارك لبلادنا، وأرجو أن يكون شعبي قد استقبلك بكل احترامٍ».

وفي نفس الوقت أرسل إليه الإمام محمد بن عبد الله الخليلي[1]، بعد وصوله رسالة ترحيب ودعوة لضيافته، قال فيها بعد المقدمة:

«إخوانك أهل عُمان مسرورون بسلامتك وصحتك، مستبشرين بقدومك وطَلْعَتِكَ، وقد وَجَّهْنا إليك هذا الرسول طالبين منك الوصول زائرا إخوانك، مُشَرِّفًا أوطانك، فاضرب لنا موعدا لنوجه إليك رجالا من الخاصة رفقاء الطريق، وأخبر رسولنا بكل ما يلزم لنحيط بذلك علما، والله الميسِّرُ والسلام»[2].

يقول الشيخ أبو اليقظان: «إنَّ مهرجان الاستقبال الذي أقامته بلاد مَسْقط وعُمان حكومةً وشَعْبًا لسعادة الباروني باشا لا يدخل تحت وَصْفٍ، أبهة وجلالا وجمالا، لِمَا اشتمل عليه من مواكب فخمة، ومآدب فاخرة، ولِمَا قِيلَ فيه من بليغ النَّثْرِ، وبديع الشِّعْر، وغير ذلك»[3].

1) محمد ناصر: معجم أعلام الإباضية، قسم المشرق، ص 412، رقم 1256.
2) أبو اليقظان إبراهيم: سليمان الباروني باشا في أطوار حياته، ج1، ص 210.
3) أبو اليقظان إبراهيم ، المصدر السابق، نفس الصفحة.

سياحة الباروني الأولى في مناطق عُمان:

وفي 27 صفر 1343هـ/ 27 سبتمبر 1924م، بدأ الباروني سياحته الأولى في عُمان بزيارة المناطق القريبة من مَسْقَط، فزار مَطْرح، وروي، وبُوشر، وفنجا، والعامرات، والسيب، ثم توجه إلى «سمائل»، حيث التقى بالإمام محمد بن عبد الله الخليلي، ومنها إلى «القابل». وفي كل مكان يحل فيه يُسْتَقْبَلُ بحفاوةٍ بالغة، وقد ألهبت رحلته مشاعر الشعب العُماني وحَرَّكَتْ عواطفهم النبيلة، فتنافسوا في منابر الشعر والخطابة، فألقيت القصائد في الإشادة بجهاده وصبره، وحصل له من الأنس والسعادة مع أهل عُمان المشهورين بالكرم ودماثة الأخلاق ما يفوق الوصف.

وقد سَجَّلَ الباروني تلك القصائد وأرسلها إلى صديقه وزميله الشيخ أبو اليقظان إبراهيم، الذي أورد تلك القصائد في كتابه «سليمان الباروني باشا في أطوار حياته». كما قام الشيخ عيسى بن صالح الطيواني الذي رافقه في رحلته بجمع كل ما قيل فيه من قصائد في كتاب بعنوان «القصائد العمانية في الرحلة البارونية».

بقي الباروني يتجول في مناطق عُمان أكثر من أربعة أشهر، يتنقل فيها من بلدة إلى أخرى، وهو في أتم السرور بوجوده بين إخوانه، فكان يبادلهم شعرا ونثرا على الاستقبال العظيم والحفاوة البالغة، التي وجدها في الشعب العُماني الكريم.

وسمع أهل طرابلس ومزاب بوصول الباروني سالما إلى عُمان، فشاركوا إخوانهم العُمانيين بقصائد مماثلة.

وقد أورد أبو اليَقْظان في كتابه عن الباروني ـ الذي سبقت الإشارة إليه ـ نماذجَ من الشعر الذي قيل فيه، وسَرَدَ مسيرة جولته في عُمان، وما قام به من أعمال.

وهكذا عاش الباروني بين إخوانه وأصحابه في بلده الثاني عُمان ـ بعد أن تَخَلَّصَ مِنَ الأَسْرِ ـ في أُنْسٍ وراحَةٍ وَسَعَادَةٍ، ولم يُنَغِّصْ عليه في تلك المدة إلا

الأمراض، ومنها مرض الملاريا، فقد كانت تشتد عليه الحمّى أحيانا وتمنعه من الحركة، فتجعله طريح الفراش أيَّامًا، وأحيانا أسابيع، فعندما وصل بلدة "القابل"، ساءت حالته، لدرجة أنه لم يتمكن من مقابلة الزوار، ولم يتمتع لا بأكل ولا شرب و لا نوم، حتى أصبح -كما قال في إحدى رسائله - جلد على عظم. ولما تحسنت حالته قليلا، قطع رحلته وعاد إلى مَسْقَط فوصلها في 10 شعبان 1343هـ، حيث استقبله السلطان «تَيْمُور بن فيصل» وأكرمه غاية الإكرام، وخَصَّصَ له بيتا خَاصًّا أقام فيه.

وتقديرا لجهاده وكفاحه ضد الاستعمار الإيطالي، قَلَّدَهُ السلطان تَيْمُور (نيشان الشرف السعيدي)، في حفل بهيج حضره العلماء والوزراء وأعيان عُمان. وبهذه المناسبة قال الباروني قصيدة، مطلعها:

تَيْمُورُ يا تَاجَ المُلُوكِ ويَا مُتَوِّجَ فَخْرِهَا
قَلَّدْتَنِي نِعَمًا عَجَزْ تُ عَنِ الوَفَاءِ بِشُكْرِهَا

زيارة الباروني الثانية لمناطق عُمان:

وبعد عدة شهور تحَسَّنَتْ صِحّته، فقام بجولة أخرى في أرجاء عُمان، بدأها في غُرّة ذي الحجة سنة 1343هـ/ يوليو 1925م، وفيها زار المنطقة الشرقية من عُمان، بدأها بزيارة «صور»، ثم «جعْلان»، ومنها إلى «بديّة»، ثم «القابل»، حيث استقبله الشيخ عيسى بن صالح الحارثي، وفيها مكث أكثر من شهر، ثم زار «إبرا»، و«المضيبي»، ومنها انتقل إلى المنطقة الداخلية فزار «إزكي»، و«بركة الموز»، ومنها توجه إلى «نزوىٰ».

زيارته لـ«نَزْوَىٰ»:

وفي أوائل ربيع الأول 1344هـ/أواخر سبتمبر1925م وصل «نَزْوَىٰ» عاصمة الإمامة، واستقبله الإمام الخَلِيلي ورجال دولته وجيشه، وحضر صلاة الجمعة مع

الإمام في جامع نَزْوَى، ثم ألقى بعد الصلاة خطابا أوضح فيه رؤيته للنهوض بعُمان، وكيفية تطويرها، ودعا إلى ضرورة التعاون والعمل الجماعي، وختم خطابه بقصيدة[1] منها هذه الأبيات:

اللهُ أكبرُ هَلَّلَ الخُطَبَاءُ ... وعَلَا الهتافُ وهاجَتِ الشُّعَرَاءُ
واهْتَزَّ أهلُ المشْرِقَيْنِ تَفَاخُرًا ... وَنَمَا الشُّعُورُ وطَارَتِ الأَنْبَاءُ
وبَدَتْ لِعَصْرِ الرّاشِدِينَ دَلائِلٌ ... إذْ لاحَ مِنْ جَبَلِ الشّراةِ سَنَاءُ
فَأَضَاءَ واصِبَةَ البِلادِ وأشرقَتْ ... بِعُمَانَ شَمْسُ إمامَةٍ سَمْحَاءُ
وعَلَا إمامُ المسلمين مُحَمَّدٌ ... عَرْشًا تَطَأْطَأُ دُونَهُ الجَوْزَاءُ
ذاك المعَظَّمُ قُطْبُ دَائِرَةُ الهُدَى ... مَنْ أَخْلَصَتْ لِلِوَائِهِ العُظَمَاءُ
فَأَشَادَ للدِّينِ القَوِيمِ مَنَارَةً ... وَالأَمْنُ مَدَّ رِوَاقَهُ الرُّؤَسَاءُ
وَحَكَتْ مَآثِرُهُ الجَلِيلَةُ مَنْ مَضَى ... فَالْتَفَّ حَوْلَ مَقَامِهِ العُلَمَاءُ
فَاهْنَأْ بِذَلِكَ يا ابن عَبْدِ الله وَلْـ ... ـيَهْنَأْ بَنُوكَ؛ الشَّعْبُ والأُمَرَاءُ

زيارته للحمراء:

ثم زار بلدة «الحمراء»، وفيها استقبله أهلها استقبالا عظيما، يَصِفُهُ الباروني نفسه بقوله: «وكان لدخولنا الحمراء منظر مطرِب، فقد تلبّد دخان بنادقهم ومدافعه في الجو كالسحاب، وكُنَّا نمُرّ بين مزارعها الخضراء، تحفّ بنا الرجال والخيل والمهر، وقد بلغ عدد البنات والخادمات اللاتي يحملن جرار الماء المغطاة بأكواب الزجاج على رؤوسهن نحو المائة، يراهُنّ الناظر كأسراب الظباء يمينا وشمالا، ينادين هَلْ مِنْ شَارِبٍ؟ ويرى الأكواب والجرار تلمع كالنجوم عند مقابلة الشمس، فكان الموكبُ

1) ديوان الباروني، ص175.

من أجمل ما شاهدته من المواكب، ..الخ».

وكان في استقبال الباروني في بلدة «الحمراء»، علّامة عُمان في ذلك الوقت الشيخ ماجد بن خميس العبري، البالغ من العمر أربعا وتسعين عاما، وأيضا الشيخ إبراهيم بن سعيد العبري الذي رَحَّبَ به بقصيدة[1] قال فيها:

شَرُفَتْ عُمَانُ وأَهْلُهَا بِوُفُودِ مَنْ حَازَ العُلا
السَّيِّدُ البَطَلُ الكَمِيُّ اللَّيْثُ جَوَّابُ الفَلَا
بَاشَا سُلَيْمَانُ الهُمامُ المُرْتَضَى زَيْنُ المَلَا
ذاكَ ابْنُ بَارُونَ النَّفُو سِيُّ الشَّهِيرُ ابنُ العلا
ذاك الَّذِي بِعُلُومِهِ ظُلْمُ الجَهَالَةِ قَدْ جَلَا
ذَاكَ الَّذِي بِسُيُوفِهِ قَطَعَ الغَلَاصِمَ والطُّلَى
كَمْ وَقْعَةٍ في حَرِّ نَا رِ جَحِيمِهَا الأَعْدَا صَلَى
كَمْ في طَرَابُلُسَ أَبَا دَ المُشْرِكِينَ وَجَنْدَلَا
لا تَنْثَنِي عَزَمَاتُهُ عَنْهُمْ وَلَوْ عَظُمَ البَلَا
غَاصَ الخِضَمَّ وَسَارَ في ظُلُمَاتِهِ مُسْتَكْمِلَا
مَا غَاصَهُ لِلآلِئٍ بَلْ لِلْعِدَا مُسْتَأْصِلَا
تَلْقَاهُ إِنْ عَظُمَ البَلَا مُتَبَسِّمًا مُتَهَلِّلَا
لَا غَرَوْ إِنْ غَدَرَ الزَّمَا نُ بِهِ فَأَصْبَحَ أَعْزَلَا
فَلَكَمْ عَزِيزٌ ذَلَّهُ وَلَكَمْ غَنِيٌّ أَرْمَلَا

1) أبو اليقظان إبراهيم: سليمان الباروني باشا في أطوار حياته، ج2، ص 16.

فَعَسَى المُهَيْمِنُ أَنْ يُعِيـــــدَ زَمَانَهُ مُتَفَضِّلَا
وَيُقِيمَهُ فِي العَالَمِيـــــنَ مُجَاهِدًا مُتَبَتِّلَا

زيارته للجبل الأخضر:

ومن بلدة «الحمراء» صَعِدَ الباروني إلى الجبل الأخضر ـ مشيا على الأقدام ـ وقال في قِمَّتِه مقطوعات شعرية في يوم 16 ربيع الأول 1344هـ/5 أكتوبر 1925م منها قوله:

فِي جَانِبِ الحمراء طَوْدٌ شامِخٌ مُتَمَنْطِقٌ مُتَعَمِّمٌ بِسَحَابِ
يمّمْتُ قِمّتَه الرَّفِيعةَ راجِلا وسَجَدْتُ للخَلَّاقِ في مِحْرَابِي
وَمَعَ الأَثِيرِ بعثْتُ مِنْهُ تَحِيَّتِي لجَمِيعِ مَنْ في الأَرْضِ مِنْ أَحْبَابِي
ومَعَ الشُّعَاعِ رَفَعْتُ صَاعِدَّة إلىٰ عَرْشِ الإلَهِ مَطَالِبِي وَمَتَابِي
أَرْجُو مِنَ المَوْلَى قَبُولَ جَمِيعِهَا وَشُمُولَ كُلِّ أَقَارِبِي وصِحَابِي

وفيه قال أيضا:

أَصفَى المِيَاهِ شَرِبْتُ أَعْلَى قِمَّةٍ فَوْقَ السَّحَابِ إلىٰ السَّمَاءِ قَرِيبَهْ
فِيهَا الرَّيَاحِينُ الذَّكِيَّةُ أَعْبَقَتْ وَمَنَاظِرُ الأَشْجَارِ فِيهَا غَرِيبَهْ
فِيهَا الهَوَاءُ مُنَقَّحٌ وَطُيُورُهَا فَوْقَ الغُصُونِ لَدَى الصَّبَاحِ عَجِيبَهْ

زيارة لبهْلا:

ثم نزل إلى «بَهْلا» في ربيع الآخر 1344هـ/ نوفمبر 1925م، ووقَفَ علىٰ حصنها، وزار حصن «جبرين»، وأعجب بعمارتهما وحسن بنائهما، وكتب إلى الإمام الخليلي رسالة يدعوه فيها إلى زيادة الاهتمام بهما.

وهكذا عاش الباروني بعُمان متنقلا بين مناطقها، تارة مع السُّلْطان، وتارة مع

الإمام، وكان يَنْصَحُ ويُسَدِّدُ ويُقَارِبُ، أو يكتب، أو يسعى في الإصلاح ورفع مستوى المعيشة للشعب العُماني، وكان أحيانا يشتد عليه المرض فيصبح طريح الفراش عدة أسابيع، حتى إذا تحسنت حالته، كان يقوم بما يستطيع من أعمال أو مراسلات، وقد حاول السفر إلى كراتشي أو بومباي للعلاج لكن بريطانيا منعته، فكتب إلى الملك فيصل -ملك العراق في ذلك الحين- يستأذنه في السفر إلى العراق للعلاج، فلما أذن له سافر إلي بغداد في أوائل سنة 1348هـ/1929م، ومكث فيها قرابة أربعة أشهر، ثم عاد بعد تحسن حالته.

ففي رسالة من بغداد مؤرخة في 18 صفر 1348هـ/1929م كتب يقول:

«وصلت بغداد وباشرت التداوي، وصحتي في تقدم مُطَّرِدٍ يوميا، والحمد لله. وعلى رأي الدكتور: سأقيمُ هنا شَهْرًا حتى يَسْتَأْصِلَ الداءَ ويخرجُهُ مِنْ مَكَامِنِهِ في الجسم، ولعل بعد هذا يمكنني الإقامة بعُمان بهناء، ويمكنني القيام بعمل نافع جِدًّا، أما على حالتي الأولى التي كانت لا يَمُرُّ عَلَيَّ شهر وأنا صحيح، فلا أقدر على عمل، وصِحَّتِي في كل وقت مهددة بالخطر».

الباروني يجتمع مع عائلته:

لم تضعف همة الباروني حتى في أَشَدِّ حالات مرضه، وكان دائما يأمل في تحقيق أمنيته باجتماعه بعائلته، وتحريرِ بَلَدِهِ، ولم يَفْقِدْ أمله في البحث عن كل سبيل يحقق له ذلك، فمن أجل خروج عائلته من ليبيا، سَعَى بكل السُّبُلِ، وطَرَقَ كُلَّ الأبواب التي يعرفها، وطَلَبَ من بعض الوجهاء التوسط له لدى الدول الكبرى بأن تلتحق به أسرته التي بقيت في ليبيا.

فمن رسالة إلى السيد الحاج «عمر العنق» في 28 محرم 1345هـ/1926م يقول فيها بعد الديباجة:

«إني في شوق لا يوصف إلى تلك الديار العامرة، وإلى الاجتماع بالإخوان

الأفاضل الذي لا أنسى ما عشت ذكرهم، سهل الله ذلك.

ولو يتوسط بعض القُوَّادِ والعَزّابة لدى الحاكم في حصول الإذن لي في الدخول إلى تونس أو الجزائر بضمانة معتبرة، ما أظن أن الدولة تَرُدُّ طلبهم، لا سيما إذا كنت مع عائلاتي وأولادي، الذين هم لا يزالون في طرابلس بمنزلة الأسارى مع أخي الشيخ يحي ...».

وفي رسالة مؤرخة في 9 جمادي الأولى 1345هـ/1926م لإخوانه في وادي ميزاب طلب منهم التوسط لدي السلطات الفرنسية، قال في نقل عائلته إلى تونس قال:

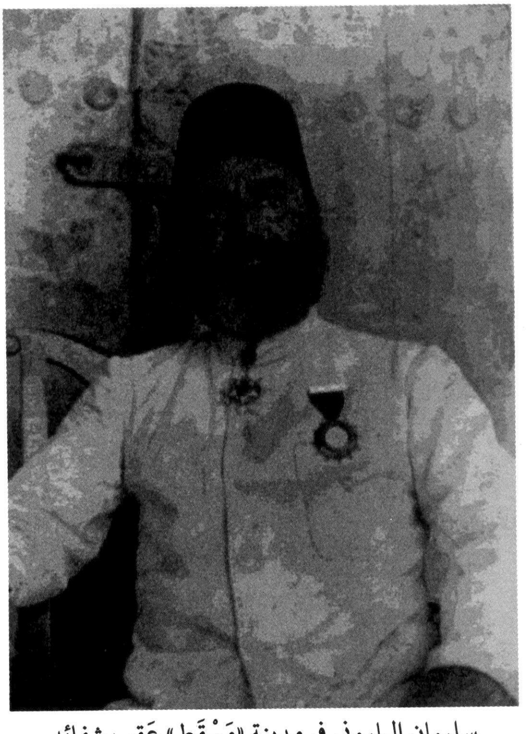
«إني أتمنى كثيرا أن تسمح لي الدولة الفرنسية بتوسط الإخوان أن أنقل عائلتي إلى تونس، لآتيها بنفسي وأنقلها إلى هنا. إذ لا يخفاكم طول الطريق وصعوبته وتنقلاته، مع عدم وجود من يرافقها، ويكون ذلك وسيلة للاجتماع بالإخوان ولو شهرا واحدًا، نُزِيلُ به ألم الشَّوْقِ المتراكم، والفرقة الطويلة، ويكون دليلا على تساهل فرنسا، ولا أظنها تَرُدُّ رجاء رجال ميزاب في هذا السبيل ...».

لكن كل محاولاته لم يتم لها النجاح، ولم يتحقق له ما أراد من الاجتماع بأسرته إلا بعد حوالي ثماني سنوات من وصوله إلى عُمان، أي في عام 1350هـ/1932م.

وما إن وصلت عائلته إلى «مَسْقَط» حتى أصيبوا جميعا بمرض الملاريا، بما فيهم أُمّ زوجته، التي ما لبثت أَنْ توفيت فور وصولها، يوم 26 شعبان 1350هـ/5 يناير 1932م. يقول في رسالة إلى الحاج «إبراهيم العنق»:

«... وصلت العائلة مَسْقَط، وظننتُ أني ظفرت بالغنيمة، اجتمع الشَّمْلُ المشتت منذ عشر سنين، وحصل الأُنْسُ والراحة، وتخلصت من الأَسْرِ. لكنّا نريد والله يريد. !! تجري الرياح بما لا تشتهي السفن.

ما كادت تصل مَسْقَط حتى أصاب أفرادها جملة حُمّى الملاريا، ثم ضَمَّت إليهم إبراهيم الذي سبقهم، فصاروا تسعة، وبعد معاناة شتى الآلام، وتردد الأطباء، ووفاة جدة الأولاد، واختلال عقل إحدى البنات، واعتلال صحة الباقين، اضطررت نقلهم إلى بغداد، بعد أَنْ قَالت لي الطبيبة: إن هؤلاء أصبحوا لقمة بين شفتي الموت، فإذا لم تخرجهم مع الباخرة المتوجهة بعد يومين إلى البصرة، فإنك سَتُقَدِّمُ كُلَّ أسبوع واحدًا إلى المقبرة.. إلخ».



سليمان الباروني في مدينة «مَسْقَط» عَقِب شفائه

الباروني في بغداد:

أرسل الباروني أسرته إلى بغداد للعلاج في صفر 1351هـ/يونيو 1932م، ثم التحق بهم بعد فترة، بعد أن علم بسوء حالة ابنه إبراهيم، ورغم درجة الحرارة المرتفعة في بغداد، فإن أحوالهم الصحية تحسَّنَتْ كثيرا، لكنه أصبح بعد ذلك في حيرة من أمره، هل سيعود بهم إلى عُمان، أو يبقى معهم في بغداد، وحالته المادية لا تسمح له بذلك؟

وفي بغداد أخذ يفكر من جديد في البحث عن مكان يعيش فيه هانئا مستقرا مع عائلته، وقد شَغَلَهُ هذا الأمر حتى قال في إحدى رسائله: «وإني في شغل من أمر العائلة، فإنَّ إعادتها إلى عُمان بعد التجربة خطر على حياتهم، ورجوعها إلى طرابلس على الحالة السابقة رجوع إلى الأَسْرِ والتشتت الذي كنا نتألم منه، وبقاءها في بغداد وأنا في عُمان حِمْلٌ لا أطيقه...».

وقد اتصل بالسلطات الإيطالية والفرنسية والإنجليزية من أجل الحصول على إذن لدخول مصر أو تونس أو الجزائر، ولكن لم يجد جوابا.

فمن رسالة إلى الشيخ «امتياز» مؤرخة في 21 صفر 1355هـ/1936م من بغداد يقول:

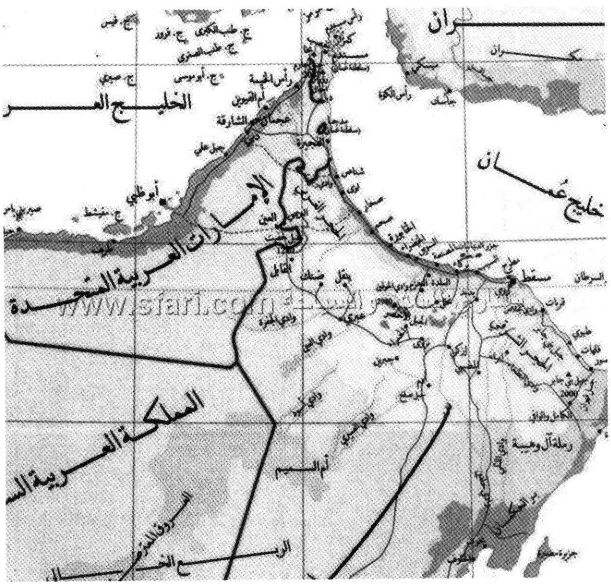
«أخبرتك من قبل بانقطاع المخابرة مع الطليان على الإذن للعائلة في الرجوع بسبب الحرب، وإذ خرجوا منها ظافرين بهذه السرعة العظيمة فلا أظنهم يتساهلون في شيء، وإني أفكر في فتح الكلام معهم مرة أخرى، والتساهل، لأنَّ البقاء في بغداد أصبح عبثًا، ووَخِيمُ العاقبة مادّةً ومعنًى.

أما مراجعتي لفرنسا على تونس والجزائر فقد صرفتُ النظر عنها؛ لأنها أصبحت تتحبّب إلى إيطاليا أكثر من ذي قبل، والله وَلِيُّ الأمر... الخ».

وفي رسالة من بغداد إلى أبي اليقظان في 5 محرم 1357هـ/1938 يقول:

«قد تجددت المساعي للحصول على الإذن إلى مصر بواسطة وزير مصر هنا (عَزّام بك) الذي عاد صديقا بعد ما جرى بيننا ما قرأتموه. قَدَّرَ الله الخير».

وعندما فشلت كل محاولات الباروني للحصول على إذن للاستقرار في بلد آخر، ترك أسرته في العراق، واستطاع أن يُلحق ابنه إبراهيم بكلية الحقوق في بغداد، وأَنْ يجد له عملا مناسباً، أما هو فقد ظل يتردد بين مَسْقَط وبغداد إلى سنة 1357هـ/1938م، ثم عزم على الاستقرار بمَسْقَط مع عائلته سنة 1357هـ/1938م، بعد تَحَسُّن أحوالهم.



النصف الشمالي من خارطة عُمان وتظهر فيه بعض المدن والقرى التي زارها الباروني

إنجازات الباروني في عُمان

لم تكن جولة الباروني في مختلف قرى وبلدان عُمان لمجرد السياحة فحسب، إنما كانت أيضا رحلة استطلاعية ليتعرّف فيها على أحوال عُمان السياسية والاقتصادية والاجتماعية، تمهيداً لتنفيذ مشاريعه الإصلاحية.

والدارس لأحوال عُمان في تلك الفترة يدرك أن الوضع العام لم يكن مُرضيا، ويحتاج إلى إصلاحات في كثير من المجالات؛

ـ فسياسيا؛ توجد حالة من الانقسام السياسي؛ بين السلطان «تيمور بن فيصل» ومن بعده ابنه «سعيد»، والإمام «محمد بن عبد الله الخَلِيليّ»، وكلا منهما يسيطر على أجزاء من عُمان.

ـ واقتصاديا؛ أصابت الأرض قلة الأمطار، والجفاف، والقحط الذي أشار إليه في إحدى رسائله إلى بعض إخوانه في وادي مزاب، واستمر قرابة عشر سنوات، اضطر فيه آلاف العُمانيين إلى السفر إلى «زِنْجِبار» وأماكن أخرى، بَحْثًا عَنِ الرزق.

وقد تدهورت الأوضاع الاقتصادية في عُمان خلال فترة الحرب العالمية الأولى 1914- 1918م، فَقَلَّتِ الأَمْوال، حتى بلغ العجز في ميزانية الدولة 300 ألف جنيه إسترليني.

ـ وصِحِّيًّا؛ انتشرت الأمراض، خصوصا مرض «الملاريا» الذي لم يسلم منه حتى الباروني نفسه، حتى أن عدد الوفيات المَرَضِيّة تجاوز أكثر من 20 ألف إنسان، حسب تقرير بريطاني، ولم تكن توجد مستشفيات لعلاج المرضى غير مستشفى واحد في مَسْقَط، تابع للإرسالية التبشيرية الأمريكية.

تلك هي حالة عُمان في ذلك الوقت فما هي إنجازات الباروني في عُمان؟

في المجال السياسي:

أدرك الباروني أن باستطاعته توظيف خبراته الإدارية والسياسية في خدمة أهل عُمان، فَشَمَّرَ الباروني عن ساعد الجد، وبدأ في العمل في عدة نواحي، ففي الناحية السياسية، سعى إلى توحيد عُمان بتقريب المسافة بين الإمام الخليلي والسلطان تَيْمُور. ذكر في رسالة له إلى أصدقائه في مزاب سنة 1344هـ/ 1926م، ما يلي: «وسَتَسْمَعُون باتحاد كلمة هذه المملكة حتى مع عظمة السلطان، بعد أن شتتها الدسائس والأغراض والمفسدون، وإني منذ نهضت من ذاك السقم المنهك، وأنا مُجِدٌّ في ذلك سِرًّا وجَهْرًا، والنجاح مُحَقَّقٌ بإذن الله».

كما ساهم في تفعيل معاهدة «السِّيب» التي تم توقيعها سنة 1920م، قبل مجيئه إلى عُمان بين الإمام سالم بن راشد الخَرُوصي، والسلطان تَيْمُور بن فَيْصل، حين رأى أن المصلحة تقتضي ذلك رغم معارضته منذ البدء لتقسيم عُمان.

ونتيجة لجهوده المخلصة، وثق في الباروني كلٌّ من السلطان سعيد بن تيمور، والإمام محمد بن عبد الله الخليلي، فقد عَيَّنَهُ السلطان سعيد بن تيمور – الذي خلف والده تيمور- مستشارا خَاصًّا له، كما عرض عليه إحدى الوزارات، لكن الباروني اعتذر. واختاره الإمام الخليلي ليمثل إمامة عُمان في المؤتمر الإسلامي الذي عُقِدَ في مصر لمناقشة قضية الخلافة، بعد سقوط الدولة العثمانية، لكن الدول الاستعمارية رفضت السماح له بدخول مصر، فوجه رسالة إلى المؤتمر عن طريق مجلة «المنهاج» التي يصدرها الشيخ أبو إسحق أَطْفيّش في مصر، مؤرخة في 19 ذي القعدة 1344هـ/1926م، ومما قال فيها:

«فإذا فاتني الحضور في المؤتمر فلا يفوتني إبداء بعض ما كنت عازما على إبدائه على صفحات «المنهاج» الأَغَرّ. وهو ما يأتي» ثم ذكر رأيه[1].

1) أبو اليقظان إبراهيم: سليمان الباروني باشا في أطوار حياته، ص 50.

أدرك الإمام الخليلي إمكانيات الباروني، وقدرته على تسيير الأمور، فجمع العلماء والأعيان، وتناقش معهم في كيفية الاستفادة من الباروني، واتفقوا على تفويض الباروني في أمور الدولة، بتوليته رئاسة الحكومة. وكان ذلك في بيان صدر في محرم 1345هـ/1926م. هذا نصه:

«بسم الله الرحمن الرحيم. من إمام المسلمين محمد بن عبد الله الخليلي، إلى جماعة المسلمين، ليُعْلِمَ الحاضرُ الغائبَ، أنِّي فوضتُ الأمر في تنظيم المملكة تنظيما صالحا للشيخ الباروني، فبيده الملكية والعسكرية والمالية والسياسة الداخلية والخارجية، فمن يخالفه أو يقف في سبيل أعماله الإصلاحية يعاقَب ولا يلوم إلا نفسه»[1].

وقد هَنَّأَهُ بهذا المنصب كثير من الشعراء العُمانيين، منها قصيدة أبو سلام الكندي التي مطلعها[2]:

قُمْ سُليمانُ في صَلاحِ البِلادِ   لا تُبَالِي بِقَوْلِ أَهْلِ الفَسَادِ
إنَّمَا أَنْتَ عَالِمٌ كَيْفَ أَضْحَتْ   أُمَمُ الغَرْبِ تَزْدَرِي بالعِبادِ
هي بالعجزِ أَمْ بِجَهْلِ بَنِيهَا   نَالَتِ المجْدَ أَمْ سَمَتْ بالرُّقَادِ
لا وَلَكِنَّهَا تَدُكُّ بِعِلْمٍ   كُلَّ صَرْحٍ بَدَا بِغَيْرِ عِمَادِ
فابْذُلِ النَّفْسَ والنَّفِيسَ وَشَمِّرْ   واصْرِفِ الجهْدَ مِنْ صَمِيمِ الفُؤَادِ
إنْ تُعَارِضْكَ فِئَةٌ في نِظَامٍ   لا تَلُمْهَا لِجَهْلِهَا بالمُرَادِ

1) أبو اليقظان إبراهيم: سليمان الباروني باشا في أطوار حياته، ج2، ص 30.
2) أبو اليقظان إبراهيم: سليمان الباروني باشا في أطوار حياته، ج2، ص 40. نشرت هذه القصيدة في مجلة المنهاج، السنة الثانية، ص 27. التي كان يصدرها الشيخ أبو إسحاق اطفيش في مصر.

هَكَذَا كُلُّ مَنْ سَعَى في صَلاحٍ ... عَاكَسَتْهُ الأَيَّامُ بالحُسَّادِ
إنَّما الحَقُّ واضحٌ كَيْفَ يَخْفَى ... عَنْ بَصيرٍ فَمَالِ هَذَا التَّمَادِي
لو سَلَكْنَا نَهْجَ الصَّلاحِ لأَمْسَى ... ذِكْرُنَا في السَّمَا وفي كُلِّ نَادِي
أَوْ دَرَسْنَا عِلْمَ التَّوارِيخِ جِئْنَا ... بِفَخَارِ الآبَاءِ وَالأَجْدَادِ
لَكِنِ الجَهْلُ حَطَّنَا فَانْحَطَطْنَا ... ونَسِينَا مَكَائِدَ الأَضْدَادِ
كُلُّ شَيْءٍ بِأَوَّلِ الأَمْرِ صَعْبٌ ... فَإِذَا تَمَّ كَانَ عَيْنُ المُرَادِ

في المجال الإداري:

كتب في رسالة إلى «عمر العنق» في 9 جمادى الأولى 1345هـ يقول:

«إني في اجتهاد في تنظيم أمور المملكة، مبتديا بماليّتها، وبعد حفظها أباشر العمل في غيرها».

ومما أنجزه بعد تفويضه من قبل الإمام الخليلي: تقييد الصادر والوارد في بيوت المال، في «سمائل» و«نزوى» و«بهلا»، ورَصْدِ أوقافها، ومدخول سُوقِهَا، ثم توحيدها كلها في صندوق واحد، في يد أمينة، تحت إشراف الإمام، وتنظيم جباية الزكاة، ووضع قوانين صارمة لمتابعة الجُبَاة، وإنشاء الدواوين، وتسجيل كل المعاملات في دفاتر رسمية.

غير أنَّ بعضا من المنتفعين عارضوا الإصلاحات التي قام بها الباروني، خصوصا فيما يتعلق بالأوقاف، فاستنكروا عليه التغييرات، وارتفعت أصواتهم بنشر الشائعات، فقائل يقول: إنَّ هذا مِنَ البدع، وآخر يقول: إنه من عمل النصارى، وغيره يقول: لم نجد هذا في آبائنا ومن قبلهم فكيف نخالفهم!

وتلك هي طبيعة كل شيء جديد مهما كان مفيدا، لا بد أن تقف طائفةٌ من الناس تعترض، حتى يتبين وجه الحق.

يقول الشيخ أبو اليقظان: ولما بَلَغَ هذا الأمر إلى الباروني، حضر إلى مجلس الإمام، وكان غَاصًّا بالناس، من عُلماء ورؤساء وغيرهم، فجلس واستأذن في الكلام، فأذن له، فوضع أمامه ظرفا وفيه أوراق، فاندفع مُسْتَرْسِلًا في الكلام نحو ساعتين، بصوت جهوري، وصار يتكلم في كل موضوع من مواضيع الإصلاح التي قررها، مُبَيِّنًا مضارّ الحالة الحاضرة، ومصالح الإصلاح المقصود، مستدلا ببعض أعمال الخلفاء في عهد الصحابة رضوان الله عليهم، وببعض الآيات الكريمة، والأحاديث النبوية، والإمام يجول ببصره يميناً وشمالاً، إلى الذين هرعوا إليه من قبل وأتوه معترضين، وهم في غَضَبٍ شَدِيدٍ، ينظر الإمام إليهم وهو يبتسم كلما سمع حُجَّةً دامغة من كلام الباروني باشا.

ولما انتهي من الكلام قال الإمام ما خلاصته: «أمَّا المضرَّةُ فقد شاهدناها، وأما المصلحةُ، فها نحن نسمعها بآذاننا، ونلمسها بأيدينا، وديننا المُبِينُ لا يسوّغ لنا قطعًا سلوك طريق المضرة، وتجنب طريق المنفعة، بناءً عليه إن هذا الأمر قد قُضِي باتفاق العلماء، ولا أقبل أيّ اعتراض عليه[1]».

ثم أمر بإعلان تفويض الباروني بتوليته رئاسة الدولة في الأسواق، حتى يعلم الجميع بالأمر.

في مجال التعليم:

أسس الباروني مدرسة عصرية في مدينة «سمائل»، بالاستعانة ببعض المحسنين، وقد بناها من طابقين، وكان يأمل أن يحصل على إذن للسفر لجلب مدرسين لها، ولكن لم يتيسر له ذلك. ففي رسالة إلى أحد أصدقائه أخبره عن بناء المدرسة قال فيها:

---

1) أبو اليقظان إبراهيم، سليمان الباروني باشا في أطوار حياته، ج2، ص 31.

«أكتب إليك هذه الأسطر على تعب، لملازمتي الفراش مدة شهر بعد رجوعي من «نَزْوَى» من الألم المعهود... وهذا حالنا مع هواء عُمان. أما بناء المدرسة فمستمر من يوم رجوعي من «نَزْوَى»، نسأل الله الشفاء والإعانة، حصل لي الإذن من ملك العراق في الوصول إلى بغداد للتداوي، حيث مَنَعَتْ بريطانيا دخولي إلى كراتشي والهند. وسأذهب إلى بغداد إن شاء الله في أواخر رمضان، بعد إتمام الطبقة الأولى من المدرسة، لأنَّ هذا الألم أتعبني ولازمني وأخاف عاقبته. والله الميسر».

في المجال الصحي:

اهتم الباروني بالناحية الصحية في عُمان، وقد سبق القول إنه حينئذ لم يكن في عُمان إلا مستشفى واحدٌ في «مَسْقَط»، يعالِجُ فيه طبيبٌ أمريكي، يعمل بالتبشير للدين المسيحي، وكان الباروني على اتصال مع طبيب سوري الأصل اسمه «فؤاد الجمال»، هو أوَّل طبيب جاء إلى طرابلس بعد الاحتلال الإيطالي في سنة 1911م لعلاج جرحى المجاهدين، وبقي يقوم بواجبه الوطني والديني منذ موقعة الهاني الشهيرة، حتى انتهاء مدة الحرب، ولما عَلِمَ بوجود الباروني في عُمان، تَوَجَّه نحوها عن طريق البصرة، لكنه أصيب بالملاريا في الطريق، وما إن وصل «مسقط» حتى اشتد عليه المرض فأُدْخِلَ المستشفى، ولما تَحَسَّنَتْ حالته اتصل بالباروني بـ«سمائل»، ففرح الباروني به فرحاً شديدا، وقد أعجب الدكتور «فؤاد» بالبناية الضخمة التي بناها الباروني لتكون مدرسة عصرية، واتفق معه على إنشاء مستشفى، وإلقاء دروس صحية في المنطقة، فوافق، وقَرَّرَ الإقامة في البلاد.

وقد تَوَقَّفَ هذا الطبيبُ أثناء وجوده في عُمان عَنِ التدخين، وحافظ على الصلوات، وأَطْلَقَ لحيته، وبدأ في العمل، لكن قَدَرُ الله غالب، فلم يمهله المرض، إذ عاودته الحُمَّى، واشتدت عليه بعد أسبوعين، حتى أصبح لا يدري ما يقول: ومما فُهِم من كلامه أنَّ اللهَ ساقه إلى هذا البلد ليدفن في أرض إسلامية، ليس فيها أجنبي، ولم يلبث إلا أياما حتى اختاره الله إليه، فحزن عليه الباروني حزنا شديدا. وكان لوفاته

أثر كبير عليه وعلى من حضر. وصدق فيه قول الشاعر:

قُلْ لِلطَّبِيبِ تَلَقَّفَتْهُ يَدُ يَا شَافِيَ الأَمْرَاضِ مَنْ أَرْدَاكَ

لم يكن الإمام الخليلي يسمح بوجود غير المسلمين في المناطق الخاضعة لحكمه، وكان المرضى يتكبدون مشقة كبيرة في السفر إلى مَسْقَط للعلاج في المستشفى الوحيد، الذي تقوم فيه بالعلاج بعثة تبشيرية تعالج وتعطي الأدوية بالمجان.

وبعد إلحاح الكثيرين وشفقة بالمرضى المساكين، سمح الإمام للبعثة أن تأتي مؤقتا إلى «سمائل»، لتقوم بعلاج بعض الحالات.

وَصَلَتْ «سمائل»، قافلةٌ محملة بالأدوية والمعدات والكتب، إلا أنها لم تقم بواجبها الإنساني سوى بضعة أيام، ثم بدأت مهمتها التبشيرية، فكان الطبيبُ النصراني يقوم بجمع المرضى، ثم يدخل عليهم قِسِّيسٌ يتكلم اللغة العربية، فيدعو الله أن يرفع راية يسوع على البلاد، وأنْ ينصرَ أتباعه، ويقهر أعداءه، ثم يطلب من المرضى المساكين ـ الذين أغلبهم لا يفهمون ـ ما يقول أن يُؤَمِنوا على دعائه، ثم يوزّع عليهم رسائل تدعو إلى الدين المسيحي.

ولما علم البارونيُّ بذلك ـ وكانَ مريضًا ـ أرسلَ إلى الإمام يبلِّغُه الخبرَ، ويطلب منه إخراج البعثة من البلاد بأسرع ما يمكن، فتمَّ ذلك، وعادت البعثة التبشيرية من حيث جاءت.

تلك هي بعض إنجازات الباروني في عُمان، وقد كان أملُهُ أن تكون أكثر، لولا الأمراض التي لازمته منذ وصوله إلى عُمان، وكان عندما يجد في نفسه قُوَّةً على العمل يستغلها في الكتابة، أو مجالات الإصلاح المختلفة، ففي رسالة إلى صديقه الوفي «عمر العنق» كتب يقول:

«أحرر لك هذا بقلم الرصاص وفي هذه الورقة، وأنا في الطريق عائدا إلى «سمائل» صحبة حضرة الإمام أعزه الله، مِنْ تَفَقُّدِ بعض حُصُونِ الجهة الغربية، وقد طالت المدة، ولم أَرَ منك خطابا، كما أَنِّي لم أكتب إليك لأني كنت ملازما للفراش مدة أربعين يوما، ثم حَصَلَ الشفاء والحمد لله، وبناء المدرسة مستمر، وعَمّا قريب تصلني آلة الرسم وأرسل لكم صورتها ولو قبل تمامها. تفصيل بعض الحوادث في كتابي إلى الأخ الأستاذ أبي اليقظان فاعذرني الآن. وإني سأصل إلى العراق للتداوي، فإنَّ الملك فيصل أرسل إلي إذنًا، ودُم سالما لأخيك المتشوق إليك وإلى ذلك القطر العامر».



المدرسة البارونية بمدينة «سمايل» (سلطنة عُمان)

صفاته الخِلْقِيَّة والخُلُقِيَّة

أولا ـ صفاته الخِلْقِيَّة:

أفضل من يعرف الباروني، ويستطيع أن يصفه وصفًا دقيقا هو زميله وصديقه أبي اليَقْظان، الذي لازمه في «مزاب»، والتقى به عدة مرات بعدها، وبقي يراسله إلى آخر أيام حياته. ففي كتابه عن الباروني يصفه بقوله:

«كان رَبْع القامة، يميل إلى القصر، كبير الهامة، عريض الجبهة، مستدير الوَجْه، في حُمْرَةٍ مَشُوبَةٍ ببياض، كثّ اللحية، أَسْوَدَ الشَّعْرِ، ضَيّقَ الفَمِ، رَخِيم الصَّوْتِ، لابتسامته جاذبية ساحرة، صَغِير الكَتِفَيْنِ، رَقِيق البَنَانِ، كأَنَّما برِيَتْ أَقْلامًا لِسِحْرِ البَيَانِ، أو سِهَامًا للطَّعْنِ بالسِّنَانِ، وهو دائم الصمت، لكن إذا نطق نطق بعِبْرَةٍ تَهُزّ المجالس، أو بنكتَةٍ ترقص المشاعر، وتُحَرِّكُ أَوْتَارَ القُلُوبِ»[1].

ثانيا ـ أخلاقه:

أما أخلاقه فيقول عنها: «فَمِنْ أخلاقِهِ البارزة: العِفّةُ والنزاهَةُ والحِلْمُ والبِرُّ والصَبْرُ والقناعَةُ، وقوةُ الإيمانِ، والثِّقَةُ بالله، والاعتصام بحبله المتين، والتَّحَرِي لدينه في سائر أموره...، لا يَطِيرُ زَهْوًا وغُرُورًا بقوَّةٍ ونُفُوذٍ، ولا يستكين ذِلَّةً وخُضُوعًا لنَكْبَةِ دَهْرٍ كَنُودٍ.

له نظر واسع لسعادة الإنسانية عموما وعلى عزة الإسلام خصوصا، وعلى إعلاء كلمة الله بوجه أخص، له اعتزاز كبير بالقومية الإسلامية، ورأي عموميٌّ لمصالح المسلمين، وشغفٌ عظيم بالاتحاد الإسلامي إلى حَدِّ الفناءِ فيه، دون اعتبار لأيِّ جِنْسٍ، وله رأي وسط في النهضة الإسلامية الحديثة، يريدها ويتمناها، ويحث

1) أبو اليقظان إبراهيم: سليمان الباروني باشا في أطوار حياته، ج1، ص 50.

عليها، لكن في دائرة الإسلام الحقّ، لا جمودَ فيها ولا جحود، ولا إفراط فيها ولا تفريط.

كَتُومٌ لأسراره، لا يطلع على غاياته ومراميه إلا خَوّاصُّهُ، له ثبات الرواسي على مبدإ الحق، المدعم بآية من كتاب الله، أو حديث من رسول الله، أو بأثر من آثار السلف الصالح، أو بقاعدة من قواعد العمْرَانِ. لا تأخذه في الله لومة لائم... الخ».

ثُمَّ يقولُ: «من أجل ذلك نشأ مَرْهُوبَ الجانب، رُغْمَ المِحَنِ التي حاقت به من سنة 1316هـ إلى 1325هـ ارتاعت منه إيطاليا وتآمرت عليه من سنة 1911م إلى1919م، وتحالفت عليه دول الحلفاء، وأحدقت به المصائب والنكبات، منذ سنة 1919م إلى 1939م، بل إلى أن مات شريدا في الهند سنة 1940م. وهو شهيدُ الحق والإيمان: لم يَخُنْ في سائر هذه الأطوار قضية الإسلام والأمة والبلاد، ولا مَدَّ يَدَهُ لمصافحة أعدائها أينما كانوا»[1].

هِمَّتُهُ وشَجاعَتُهُ:

وعن هِمَّتِهِ وشجاعته يقول أبو اليَقْظان: «قطع البحر الأبيض في الشتاء مرتين في غَوّاصة في جَوْف البحر، وقطعَ فيافي مصر في أحرج الأوقات متنكرا (في سبيل دينه ووطنه) ومع ذلك، فقد اتُّهِمَ بالخيانة، وحُوصِرَ، وقُيِّدَ في الحَدِيدِ، وحُمِلَ مُكَبَّلًا والحبل في يديه المربوطتين على جمل إلى أعماق السجن، وبقي فيه بضع سنين، ثم حُكِمَ عليه بالإعدام، لكن الله تعالى قد حفظه، وَظَهَرَتْ براءته»[2].

1) أبو اليقظان إبراهيم، المصدر السابق، ص 51.

2) أبو اليقظان إبراهيم، المصدر السابق، ص 50.

نشاطه العلمي والفكري

رغم المحن الكثيرة والابتلاءات المتنوعة التي أصابته في بداية شبابه، والأمراض المزمنة التي لازمته في آخر سنوات حياته، فقد قام الباروني بعدة نشاطات علمية وفكرية في مختلف الأماكن التي عاش فيها، من بين هذه الأنشطة:

أولا- نشاطه العلمي:

1ـ تأسيس مطبعة الأزهار الرياضية:

أَسَّسَ في القاهرة سنة 1906م مطبعة سماها «مطبعة الأزهار البارونية»[1]، طَبَعَ فيها مجموعة قيمة من الكتب في الحديث والتاريخ والأدب منها:

- الجزء الثاني من كتابه «الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية».
- الجزء الأول من ديوانه المعروف بـ«ديوان الباروني».
- ديوان «القلائد الدرية» لزميل دراسته الشيخ عَمْرو بن عيسى التَّنْدميرتي (ت 1321هـ/1903م).
- الجزأين الثاني والثالث من «وفاء الضمانة بأداء الأمانة» للشيخ امحمد بن يوسف أطْفيّش(ت1332هـ/1914م).
- حاشية الشيخ نور الدين السالمي (ت 1332هـ/1914م) على مسند الرَّبِيع بن حَبِيب (ق 2 هـ).
- ديوان «السَّيْف النقاد» للشيخ الحَضْرمي (ق 5هـ).
- جريدة الأسد الإسلامي (خرج منها 3 أعداد قبل أن تُصَادر).

1) بعض الكُتّاب يخلطون بين المطبعة البارونية التي أَسَّسَها الشيخ محمد بن يوسف الباروني، وبين مطبعة الأزهار البارونية التي أَسَّسَها الزعيم سليمان الباروني.

2ـ إصدار جريدة الأسد الإسلامي:

أنشأ في مصر عام 1324هـ/1906 جريدة «الأسد الإسلامي»، وكتب افتتاحيتها بنفسه، وتَوَّجَها بمقاله المهم في الوحدة الإسلامية، وباستفتاء لم يفكر فيه قبله أحد من المسلمين، وطبع منه آلاف النسخ، وأرسلها للأقطار العربية الإسلامية. وانتظر الجواب[1].

كان الجواب كما تقول ابنته زعيمة: منع «الأسد الإسلامي»، ومصادرة العدد الأول منه من دوائر البريد، وحتى من أصحابها المرسلة إليهم، ومع ذلك لم يتوقف الباروني عن الكتابة، فأصدر العددين الثاني والثالث، ثم أُحْرِقَتْ المطبعةُ بفعل فاعل بينما كان الباروني في الجزائر.

3ـ إصدار جريدة الباروني:

أنشأ في تركيا سنة 1913م (جريدة الباروني) بعد أن أُرغم على ترك السلاح، والخروج من ليبيا، فأخذ ينشر فيها ـ مع ثُلَّة من أصدقائه ـ مبادئه وأفكاره الإسلامية والوطنية.

4ـ بناء المدرسة البارونية بـ«سمائل» في عُمان:

بعد أن استقر في عُمان، بدأ يدعو إلى برنامج إصلاحي كامل، بتفويض من الإمام محمد بن عبد الله الخَلِيلي، فأنشأ مدرسة من طابقين في «سمائل» سميت «المدرسة البارونية»، لكن الظروف والأمراض التي داهمته، لم تتركه يتم برامجه الواسعة فيها حيث قال في إحدى رسائله:

«وإني على استعداد للسفر عند وصول أول إذن لي من إحدى الدول الثلاث، ولعلي أتوفق إلى استصحاب مُعَلِّم أو مُعَلِّمَيْن عند رجوعي، أما الآن فسأتركها

1) زعيمة الباروني: سليمان الباروني، تاريخ موجز، ص 6.

مغلقة والله الميسر والمعين».

5- افتتاح المدرسة البارونية بيفرن. وقد أشرنا إليها سابقاً.

ثانيا- مؤلفاته وآثاره الفكرية

بالإضافة إلى جهاده بالنفس والمال، لم يترك الباروني جهاد القلم، فقد كتب مقالات كثيرة في مختلف الصحف والمجلات، وله عدة مؤلفات، تدل على عُلُوّ هِمَّتِهِ، وغزارة علمه، وقوة قريحته الشعرية، فمن آثاره:

1. **ديوان شعر يسمى «ديوان الباروني»**، وهو كتاب يحمل أحاسيسه وأفكاره منذ نشأته إلى أن طبعه سنة 1908م في المطبعة البارونية، التي أنشأها بالقاهرة. يصفه الشيخ أبو اليقظان بأنه: «كتاب لطيف يحمل بين دفتيه شطرا من شعره الرقيق، في مواضيع شتى، من مدح وحماسة ووصف وإنهاض همم ورثاء وغير ذلك». وبعد وفاته قامت ابنته زعيمة بجمع ما وَجَدَتْ من بقية أشعاره وأضافتها إلى الجزء الأول، ثم طَبَعَتْ الكتاب مَرَّةً أخرى سنة 1972م. أحدث طبعة رأيتها من الديوان هي طبعة مكتبة مسقط سنة 2012م، بتصحيح الأستاذ سلطان بن مبارك الشيباني.
2. **الأَزْهَارُ الرياضية في أئمة وملوك الإباضية**: كتاب في التاريخ من ثلاثة أجزاء، طَبَعَ منه الجزء الثاني في مطبعته بمصر، تَحَدَّث فيه عن الدولة الرُّسْتُمِيَّة، ثم طُبِع عدة مرات بعد وفاته، ولا يعرف مَصِيرُ بقية الأجزاء، التي يبدو أنها مفقودة. يُذْكَرُ أنَّ الجزءَ الأول، احترق في الحريق الذي أصاب مطبعته في مصر.
3. **مختصر تاريخ العائلة البارونية. (مخطوط)**، أضافه الشيخ أبو اليقظان في بداية كتابه «سليمان الباروني في أطوار حياته».
4. مسوَّدات كتاب «**تاريخ الحرب في طرابلس الغرب**»، لم تسعفه الظروف في

ترتيبها وطبعها. يذكر الشيخ أبو اليقظان أنَّ وثائقه ومذكراته كانت تملأ أربع صناديق، ولا يعرف مصيرها[1]. وعن هذا الكتاب يقول في رسالة إلى الشيخ «إبراهيم متياز» مؤرخة في 12 الحجة 1352هـما نصه: «وأتمنى أن يمن الله عليَّ باستراحة البدن والقلب فأكتب تاريخ حرب طرابلس من سنة 1911م إلى سنة 1919م مدللا بالحجج الرسمية حتى ينكشف الغطاء عن كل ما كتمه أصحاب المقاصد، أو زادوه مما لا أصل له»[2].

5. **تعليقاتٌ** على كتاب والده الشيخ عبد الله الباروني «سُلَّمُ العامَّةِ والمبتدئين في معرفة أئمة الدين». (مطبوع).
6. عدة مراسلات مع قادة الجهاد في ليبيا، وغيرهم، ومع كثير من زملائه، أشهرها مراسلاته مع زميليه أبي اليَقْظان إبراهيم بن عيسى في وادي مزاب بالجزائر، وأبي إسحق إبراهيم أطفيّش في القاهرة، والحاج عمر إبراهيم العنق بالجزائر.
7. **مقالات متفرقة**، نُشرت في عدة جرائد ومجلات في الشرق والغرب.

1) علمت أخيرا أنه قد تم العثور على بعض هذه المذكرات في سلطنة عُمان، ويبدو أنه أعاد كتابتها في فترة وجوده في عُمان.
2) أبو اليقظان إبراهيم، سليمان الباروني باشا في أطوار حياته، ج2، ص114.

نماذجُ من شِعْرِهِ ورسائله

يمتازُ شعر الباروني بالحماسة والوطنية، وعُلُوّ الهِمَّةِ، والشجاعة في مواجهة الاستعمار، وتتضح فيه الروح الإسلامية التي تدعو إلى الإصلاح والوحدة. شعره يشمل المَدْحَ، والعِتَابَ، والنَّصِيحَةَ، والوصف والرثاء، وديوانُه مَلِيءٌ بمختلف النماذج التي ذكرنا بعضا منها في ثنايا الكتاب، وفي هذا الفصل نذكر نماذج أخرى.

أولا – نماذج من شعره:

1ـ قصيدة في أهل طرابلس:

منها قصيدته الرائعة التي قالها يصف مدينة طرابلس وأهلها، عندما أخذت شرارات الطمع الإيطالي نحو طرابلس تتطاير في الصحف، وهو يرد عليها:

لها في الجِبالِ الشَّامِخَاتِ مَعَاقِلٌ   أُسُودُ الوَغَى تَفْرِي السِّباعَ الجَمَاجِمَا
إذا ذَكَرَتْ «عَبْدَ الحميدِ» تَلَأْلَأَتْ   سُيُوفٌ لَهَا تَفْرِي العَدُوَّ المُهَاجِمَا
نُفُوسٌ تَرَى حَمْلَ السِّلاحِ فَرِيضَةً   تَرَى الرَّمْيَ حَتْمًا قَبْلَ أَنْ يَتَفَاقَمَا
لَهَا هِمَمٌ عُلْيَا تَرَى الذُّلَّ خِسَّةً   تَرَى الذَّوْدَ عَنْ أَوْطَانِهَا مُتَحَتِّمَا
لها بِشُطُوطِ البَحْرِ كُلُّ غَضَنْفَرٍ   لَهُ بِسِلَاحِ العَصْرِ عِلْمٌ تَحَكَّمَا
بِهَا مِنْ صَنَادِيدِ الحُرُوبِ جَحَافِلٌ   تَسِيلُ إِذَا مَا قِيلَ شُدُّوا المحَازِمَا
صِيَامٌ قِيَامٌ لا يَرَوْنَ فَضِيلَةً   سِوَى خَوْضِهِمْ لله في لُجَجِ الدِّمَا

إلى أن يقول:

فَوَيْلٌ لِمَنْ قَدْ سَاقَهُ النَّحْسُ نَحْوَهُمْ   هُمُ الحَتْفُ إِنْ هَزُّوا اللِّوَا وَالعَمَائِمَا

وفيه قال أيضا في مناسبة أخرى:

عِشْ أَيُّهَا الشَّعْرُ الجليل   مُسْتَرْسِلًا كالسَّلْسَبِيلْ
تَحْكِي ظَلَامًا شَقَّهُ   قَمَرٌ لَهُ طَرْفٌ كَحِيلْ
تُحْيِي شُعُورًا لَمْ يَزَلْ   هُو الحَيَاةُ لِكُلِّ جِيلْ



سليمان الباروني ويظهر شَعْرُه الذي آلى أن لا يحلقه حتى تتطهر بلده من الغُزاة

3ـ قصيدة في وصف متاعبه:

وقال[1] يصف ما لاقاه من متاعب ومصائب:

هِيَ النَّوائِبُ لي فَلَا أَرْضَى بِهَا للخَامِلِينْ
العاكِفِينَ علىٰ اللَّذَا ئِذِ في رِضَاءِ المُشْرِكِينْ

1) ديوان الباروني، ص156.

2ـ قصيدة في وصف شَعْرِهِ:

ومنها القصيدة التي يصف فيها شَعْرَهُ الذي أقسم أن لا يَحْلِقَهُ حتى تتحرر ليبيا من الاستعمار:

هَذَا هُوَ الشَّعْرُ الَّذِي شَهِدَ الحُرُوبَ الهائلاتْ
وَعَلَيْهِ أَمْطَرَتِ القَنَا بِلُ كالصَّوَاعِقِ نَازِلاتْ
خَاضَ المَعَامِعَ لا يَهَا بُ علىٰ الجِيَادِ الصَّافِنَاتْ
حُبًّا بِتَطْهِيرِ المَوَا طِنِ مِنْ بَنِي الإِيطَالِيَاتْ
آلَيْتُ أَنْ يَبْقَى إِلىٰ أَنْ يَعْبُرَ الجُنْدُ القَنَاةْ
لِنَرَى الغُزَاةَ علىٰ ضِفَا فِ النِّيلِ تَفْتِكُ بالبُغَاةْ
وَنَرَى طَرَابُلُسَ العَزِيـــزَةَ في ثِيَابٍ بَاهِرَاتْ
تَخْتَالُ في بُرْدِ الهَنَا بِالإِنْتِصَارِ علىٰ الطُّغَاةْ
وَتَسُودُ أَعْلامُ الخَلِيـــفَةِ في البِلادِ الضَّائِعَاتْ
وَنَرَى الهِلَالَ مُتَوِّجًا «جُزُرَ المُحِيطِ» الخَالِدَاتْ
إِذْ ذَاكَ يُحْلَقُ بَيْنَ أَفْـــوَاجِ الأَعَاظِمِ والغُزَاةْ
مَا بَيْنَ تَهْلِيلٍ وَتَكْـــبِيرٍ وَتَقْدِيمِ الصِلاتْ
فَيَكُونُ عُنْوَانَ الفُتُو حِ مَدَى العُصُورِ
أَوْ هَكَذَا يَبْقَى إِذَا لَمْ نَنْتَصِرْ حَتَّى المَمَاتْ
يَا مَنْ وَعَدْتَ المُسْلِمِـــينَ النَّصْرَ أُمْنُنْ بِالحَيَاةْ

لَهُمُ الطَّنَافِسُ والتَّنَا فُسُ بِالغَوَانِي والبَنِينْ
وَلَهُمْ مُعَاقَرَةُ الخُمُو رِ وَنَقْضُ غَزْلِ المُسْلِمِينْ
وَلَهُمْ بِلَا حَدٍّ مِنَ الـ أَعْدَاءِ مَا للخَائِنِينْ
وَلِيَ التَّغَرُّبُ في البِحَا رِ وفي البَرَارِي بالسِّنِينْ
وِلِيَ الجُيُوبُ الخَاوِيَا تُ مَعَ الكُفُوفِ الطَّاهِرِينْ
وَلِيَ التَّبَاهِي بِالوَقَا ئِعِ في كِفَاحِ الغَاصِبِينْ
وَلِيَ السُّيُوفُ المُرْهَفَا تُ المَاحِيَاتُ لِكُلِّ شَيْنْ
وَلِيَ الجِيَادُ الصَّافِنَا تُ الصَّائِلَاتُ علىٰ الدَّفِينْ
العَادِيَاتُ المُورِيَا تُ الغَائِرَاتُ علىٰ الكَمِينْ
الجَاذِبَاتُ الشَّاطِحَا تُ لَدَى اقْتِفَاءِ الهَارِبِينْ
هَذَا الفَخَارُ وَلَا فَخَا رَ لِغَيْرِهِ في كُلِّ دِينْ
فَلْيَنْهَضِ الأَحْرَارُ إِنْ رَامُوا نَجَاةَ المُؤْمِنِينْ
فَمُحَمَّدٌ فَخْرُ العَوَا لِمِ يَسْتَعِينُ وَلَا مُعِينْ

4ـ قصيدة في مدح شيخه:

وقال في مدح شيخه امحمد بن يُوسف أطْفيّش:

هَذَا ابْنُ يُوسُفَ حجةُ الإسلام كنزُ العلوم وَرَوْضَةُ الأَكْمَامِ
هَذَا ابْنُ يُوسُفَ شيخُنَا وإمامُنَا ودليلُنَا في الدِّينِ والأحكامِ
هَذَا ابْنُ يُوسُفَ واحدٌ في عَصْرِهِ أَعْظِمْ به مِنْ مُرْشِدٍ ومُحَامِ
هَذَا ابْنُ يُوسُفَ ذلك الطَّوْد الَّذِي في وَصْفِهِ قُلْ: عَالِمُ الأَعْلَامِ

هَذَا ابْنُ يُوسُفَ مَنْ بِنُورِ عُلُومِهِ قَالَ: ادْخُلُوا باب الهُدَى بِسَلَامِ
هَذَا ابْنُ يُوسُفَ وابْنُ يُوسف إِنْ تَشَا تَعْرِيفَهُ قُلْ: مَركَزُ الإِسْلَامِ
هَذَا ابْنُ يُوسُفَ قُطْبُ دَائِرَةِ الهُدَى هَذَا ابْنُ يُوسُفَ قُدْوَتِي وَإِمَامِي
هَذَا ابْنُ يُوسُفَ مَنْ لَهُ صِيتٌ عَلَا هَامَاتِ مُلْكِ العُرْبِ والأَعْجَام
هَذَا ابْنُ يُوسُفَ ذُو التَّصَانِيفِ الَّتِي قَدْ أعجزَتْ ذَا مَنْطِقٍ وحُسَامِ
هَذَا ابْنُ يُوسُفَ فَخْرُ كُلِّ مُحَقِّقٍ وحُسَامُ كُلِّ مُعَانِدٍ مُتَعَامِي

وقال عند وداع شيخه وأستاذه امحمد بن يوسف اطفيش وهو عائد من وادي مزاب بالجزائر سنة 1326هـ/1908م:

سَلامٌ يا إمامَ المسلِمِينَا وَيَا نُورَ الهُدَى للمُؤْمِنِينَا
وَدَاعًا لا وَدَاعَ التَّأْيِ لَكِنْ لِشَوْقٍ في الفُؤَادِ غَدَا كَمِينَا
أُفَارِقُ وَجْهَكَ الأَسْنَى ورُوحِي تَحِنُّ إذا ذَكَرْتُكُمُ حَنِينًا
فَعِشْ حتى أعودَ ودُمْ سعيدا مع الأحياء محفوظا سِنِينًا
بَقَاؤُكَ للهُدى عُمْرًا طَويلًا نجاةٌ بَلْ حَيَاةُ العالمينا
تُصَاحِبُكَ السَّلامَةُ قُلْ وَإِنِّي أَقُولُ إِذَا دَعَوْتَ بِهَا: أَمِينَا
فَإِنَّ دُعَاءَ مِثْلِكَ مُسْتَجَابٌ وأنتَ اليومَ قُطْبُ المُتَّقِينَا
فَمَنْ نَالَ التِفَاتًا مِنْكَ أَضْحَى بِفَضْلِ اللهِ ذَا حَبْلٍ مَتِينَا

5ـ قصيدة عن اشتياقه لوطنه:

ومن وادي مزاب أرسل قصيدة[1] يخاطب فيها صديقه العزيز المرحوم الشيخ

1) ديوان الباروني، ص 62.

صالح بن عمر(نعامة) البارونى[1]، تحدث فيها عن اشتياقه إلى أرض الوطن، منها الأبيات التالية:

لَيْتَهَا الغُرْبَةُ تَقْضِي بِعَجَلْ وَيَصِيرُ العَامُ شَهْرًا أَوْ أَقَلْ
وَنَرَى الشَّهْرَ كَيَوْمٍ يَنْقَضِي والليالي تَنْطَوِي طَيَّ السِّجِلّ
هَيِّنٌ ذَاكَ وإِنْ كان كَما قِيلَ مِنْ أَعْمَارِنَا ذَاكَ العَجَلْ
سَاعَةٌ تَعْدِلُ شَهْرًا عِنْدَنَا فَمَتَى يا هَلْ تُرَى نَيْلُ الأَمَلْ؟

6ـ قصيدة بمناسبة المولد النبوي:

وقال بمناسبة المولد النبوي الشريف، وقد أَدْرَجَها ضمن مقالة في جريدة «الأسد الإسلامي»:

قُمْ يا «مُحَمَّدُ» يا خِتَامَ المُرْسَلِينْ وانظرْ بِعَيْنِكَ كَيْفَ حَالُ المؤمِنِينْ
تَجِدِ الأُمُورَ تَحَوَّلَتْ عَنْ حَالِهَا والدِّينُ في عَهْدِ «السِّيَاسَةِ» قَدْ أُهِينْ
حَلّ الحَرَامُ بلا نُصُوصٍ تُقْتَفَى واسْتَهْزَأَ العاصِي بِحَالِ المُتَّقِينْ
واسْتَفْحَلَ الجُهَّالُ واشْتَدَّ البَلَا واسْتَصْغَرَ العُلَمَاءَ حِزْبُ الأُمِّيِينْ
الخَمْرُ في سُوقِ التِّجَارَةِ رَائِجٌ أَمَّا الخَنَا فَغَدَا شِعَارَ العَالَمِينْ
عِيبَ امْرُؤٌ قَالَ: الصَلاةُ فَرِيضَةٌ، والصَّوْمُ ضاعَ وحُرِّمَ الحَجُّ الثَّمِينْ
هَذَا الزِّنَا أبوابُهُ مفتُوحَةٌ أَمَّا الرِّبَا فَتِجَارَةُ المُسْتَسْعِدِينْ
آهٍ بِمَوْلِدِكَ الشَّرِيفِ تَنَوَّعَتْ طُرُقُ المعاصِي في بلادِ المُسْلِمِينْ
لا نَهْيَ بَلْ لا أَمْرَ بَلْ لا مُنْتَهَى حَارَ الدَّلِيلُ وغَارَ حَزْمُ المُرْشِدِينْ

1) والد الشيخ أبو الربيع سليمان الباروني.

مَنْ ذَا لِدِينِكَ يا «مُحَمَّدُ» بَعْدَ ذَا والله أَسْدَى أَجْرَهُ للمُحْسِنِينْ

7ـ قصيدة في أهمية العلم:

وقال القصيدة التالية[1]، وأمر أن تكتب على رخامة على عتبة المدرسة البارونية ترغيبا لمن يأتي بعده من الأجيال للاهتمام بالعلم:

هَذِهِ آثَارُنَا فَادْعُ لَنَا وَقُلِ المَرْءُ عَلَيْهِ الفِعْلُ دَلْ
(قِيمَةُ الإنْسَانِ مَا يُحْسِنُهُ) حِكْمَةٌ سَارَ بَهَا رَكْبُ المَثَلْ
مِثْلُ ذَا فَلْيَعْمَلِ العَامِلُ أَوْ يَتَنَكَّبْ جِهَةً كَيْ يَعْتَزِلْ
لا تُبَاهِي القَوْمَ بالمَالِ وَلَا بِعُلُوِّ الجَاهِ أَوْ سَبْكِ الجَدَلْ
واعْتَبِرْ مَا قَالَهُ الوَرْدِيّ[2] فِي نَظْمِهِ الحِكْمِيّ إذْ قَالَ: اعْتَزِلْ
﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ﴾ غَدَتْ آيَةٌ تَدْعُو لإِصْلَاحِ العَمَلْ
فَتَدَبَّرْهَا أَخَا الفَهْمِ وقُمْ بِدَيَاجِي اللَّيْلِ وَاجْهَدْ كَالبَطَلْ
حَصِّلِ العِلْمَ بِأَخْلَاقٍ لَهَا فِي الوَرَى صِيتٌ وَدَعْ عَنْكَ المَلَلْ
وَتَفَنَّنْ وَتَأَدَّبْ وَاسْأَلَنْ مُنْصِفًا شَيْخَكَ إِيضَاحَ العِلَلْ
انْظُمِ الشِّعْرَ وَهَذِّبْ لَفْظَهُ اخدُمِ الفِكْرَ وجَانِبْ مَنْ كَسَلْ
وَاتَّقِ اللهَ تَكُنْ طَوْدًا فَمَا ثَمْرَةُ العِلْمِ سِوَى هَجْرِ الزَّلَلْ

---

1) ديوان الباروني، ص 65.

2) هو عمر بن مُظَفَّر، أبو حفص ابن الوَرْدي، المتوفى سنة 749 هـ صاحب اللامية المشهورة، وهي من عُيُونِ شِعْرِ النصيحة والحكمة، وعلى منوالها نسج الباروني قصيدته هذه وإليها أشار. ومطلع قصيدة ابن الوَرْدي:

اعْتَزِلْ ذِكْرَ الأغاني والغَزَلْ * وَقُلِ الفَصْلَ وَجَانِبْ مَنْ هَزَلْ.

واقْبَلِ النُّصْحَ وَدَعْ طَرْقَ الخَنَا   والْزَمِ الصِّدْقَ وَإِيَّاكَ الخَبَلْ

8ـ قصيدة إلى أخويه:

عندما كان طالبا في جامع الزيتونة، أرسل قصيدة إلى أخويه يحي وأحمد في مصر يعاتبهما على انقطاع التواصل بينهم، قال في مطلعها:

ما لي أَرَى حَبْلَ المُوَاصَلَةِ انْفَصَمْ   بَعْدَ الفِرَاقِ وصَارَ أَشْبَهَ بِالعَدَمْ

ما بالُكُمْ إخوانُنَا ما بالُكُمْ؟!   أَنَسِيتُمُ عَهْدًا تَقَدَّمَ وانْصَرَمْ

فَاسْتَيْقِظُوا وَتَنَبَّهُوا بَلْ عَجِّلُوا   بجوَابِكُمْ واشْفُوا الفُؤَادَ مِنَ السَّقَمْ

9ـ قصيدة في عتاب ابن عمه:

وقال يعاتب ابن عمه، ورفيق صباه وزميله في طَلَبِ العِلْم الشيخ الأديب سعيد بن أحمد الباروني، قاضي يفرن، حين عَلِمَ أَنَّهَ بالغ في مدح الجنرال الإيطالي «غراسياني» بما يخالف الدين، فكتب إليه رسالة ناصحًا ومذكِّرًا، وضَمَّنَها قصيدة منها الأبيات التالية[1]:

رِفْقًا بِدِينِكَ يا سَعِيدُ فَإِنَّمَا   عُمْرُ الفَتَى لحظات طَرْفٍ تَنْفَدُ

امْدَحْ وقُلْ ما شئتَ لَكِنْ لا   (لا زَالَ ذِكْرُكَ في البَرَابِرِ يُعْبَدُ)

إنَّ العبادةَ للمُهَيْمِنِ وَحْدَهُ   رَبِّ الخلائِقِ مَنْ إليه تَصْمُدُ

في آل عِمْرَانَ الدَّلِيلُ فَلا تَجِدْ   عَنْ مَنْهَجٍ مَنْ حَادَ عَنْهُ يُطْرَدُ

إنَّ البَرَابِرَ طَالمَا نَشَرُوا الهُدَى   وَلِعِزِّ دِينِ اللهِ مُلْكًا شَيَّدُوا

10ـ قصيدة في نزهة:

وفي منطقة «بنداو»، بجبل نفوسة قضى يوما في ربيع 1322هـمع جماعة من

1) بقية القصيدة في ديوانه، ص 188.

أصدقائه، ثم اتفقوا بعد ذلك على العودة مرة أخرى، لكنّ الباروني لم يتمكن من الحضور، فأرسل إليهم قصيدة مطلعها:

لَأُنْسٌ بَيْنَ زَيْتُونٍ وَزَرْعٍ   وَمَاءٌ مِنْ غَدِيرٍ فِي ظُرُوفِ
وَمَشْوِيٌّ وَشَايٌ فِي كُؤُوسٍ   مُزَجَّجَةٌ مُذَهَّبَةُ الحُرُوفِ
وَضَرْبٌ بالبَنَادِقِ وَانْشِرَاحٌ   وَصَيْدٌ وَانتِشارٌ فِي الكُهُوفِ
أَعَزُّ عَلَيَّ بَلْ أَشْهَى وَأَحْلَى   وَأَرْضَى مِنْ مُلازَمَةِ السُّقُوفِ
وَأَرْجُو أَنْ أَرَى فِي الأَرْبِعَاء   خَروفًا مَعْ خَرُوفٍ مَعْ خَرُوفِ

ثانيا - نماذج من رسائله:

لم يتوقف الباروني عن الكتابة طول حياته، وتعتبر رسائله وَثَائِقَ هَامَّةً تكشف عن شخصيته الفذة، وطريقة تفكيره، وتبيِّنُ جانبا من جوانب مسيرة حياته، والواقع أنَّ رسائله وحدها تحمل تاريخا مهما، ولم يكن يكتب لنفسه، وإنما كان يكتب للتاريخ، فقد أخبرني أحد الإخوة العُمانيين المهتمين بتراث الباروني بأنه رأى بعضاً من رسائله الصادرة، مما يدل أنه كتبها مرتين، فلم تكن توجد في وقته آلات النسخ، حتى ورق الكربون لم يكن متوفرا، كما أنه أعاد في عُمان – على ما سمعت - كتابة مذكرات الحرب في طرابلس. وهذا يدلُّ على عُلُوِّ هِمَّتِهِ، واهتمامه بتوثيق المعلومات.

ورسائل الباروني كثيرة، وتحتاج إلى باحث يقوم بجمعها وترتيبها وتحقيقها وإخراجها في ثوب أنيق، ذكر أبو اليقظان كثيرا منها، وأوردت ابنته زعيمة كل الرسائل التي تتعلق بالجهاد الليبي في كتابها «صفحات خالدة من تاريخ الجهاد الليبي»، وسأكتفي بذكر بعض النماذج استكمالا للموضوع.

رسالة إلى ابنه إبراهيم:

في رسالة أرسلها إلى ابنه «إبراهيم» عندما كان طالبا في مدرسة «رأس التين» بالإسكندرية سنة 1340 هـ/ 1922م، قال فيها ناصحا وموجها ومرشدا:

«بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله.

إلى ابني إبراهيم الباروني، التلميذ في مدرسة رأس التين بالإسكندرية، وفَّقَهُ الله، وفتح عليه آمين.

اقرأ يا بُنَيّ هذه الرسالة المشتملة على تاريخ آبائك وأجدادك، لتعلم أنك من سلالة علم وحكومة، واختر لنفسك أنْ تَكُونَ إمَّا عالما جليلا، أو حاكما عادلا، ومع ذلك لا تَعْتَمِدْ على فَخْرِ الجُدُودِ بدون أن تتحلى بِحِلْيَتِهِمْ، وتقتفي آثارهم، لأنَّ الشاعرَ يقول:

كُنِ ابْنَ مَنْ شِئْتَ وَاكْتَسِبْ أَدَبًا ... يُغْنِيكَ مَحْمُودُهُ عَنِ النَّسَبِ
إنَّ الفَتى مَنْ يَقُولُ: هَا أَنَا ذَا ... لَيْسَ الفَتَى مَنْ يَقُولُ: كَانَ أَبِي

إنما إذا اجتمع في الإنسان تمجيده بأعماله وأعمال جدوده معا كان جامعا لصفات الحمد، فاجهد نفسك أن يكون لك مجد اكتسابي ذاتي تجمعه إلى مجد جدودك، فتكون كاملا مُعَظَّما بين أقرانك، يفتخر بك أبناؤك مِنْ بَعْدِكَ، واللهُ يُلْهِمُكَ الرَّشَادَ، واحفظ الأبيات الآتية من نصيحة جدك (والدي) إلَيّ عندما كنت تلميذا مثلك في الجامع الأعظم الزيتوني بتونس، واعمل بها ترشد»[1].

ثم ذكر القصيدة التي منها هذه الأبيات:

بُنَيّ تَنَبَّهْ وَاسْتَمِعْ لمقالتي ... وكُنْ واعيا لها بِقَلْبٍ مُباشِرِ

1) أبو اليقظان إبراهيم، سليمان الباروني باشا في أطوار حياته، ج 1، ص 8.

تَعَلَّمْ بُنَيَّ العلمَ والْزَمْهُ دائما   قَرِينًا مَعَ التَّقْوَى وفِعْلِ الأوامِرِ
تَعَلَّمْ بُنَيَّ العِلْمَ فالعِلْمُ زِينَةٌ   وذُخْرٌ وفَخْرٌ للفتى في المحاضِرِ
تَعَلَّمْ فإنَّ العلمَ تاجٌ وهَيْبَةٌ   لحامله بين الرِّجالِ الأكابِرِ
تَعَلَّمْ فإنَّ العلمَ لا شيءَ مِثْلَهُ   إذا صِينَ بالتَّقْوَى وتَرْكِ الجرائِرِ

إلي أن يقول:

ألا فاغْتَنِمْها يا سليمانُ فُرْصَةً   فعُمْرُ الفَتَى كَضَيْفِ لَيْلٍ مُسافِرِ
وعَمِّرْ فَراغًا قَبْلَ شَغْلِكَ وابْتَدِرْ   شَبابَكَ قَبْلَ الحادثاث البَواتِرِ
تُرانا نَعُدُّ الوقتَ يَوْمًا ولَيْلَةً   ونَنْظُرُ ما يأتي لنا مِنْ أَخَابِرِ!
أَهَلْ فُزْتَ عِلْمًا واستفدتَ فَوائِدًا؟   أَمَ انْتَ خَلِيُّ الكَفِّ وَاهِي البَوادِرِ؟!
لَعَمْرِي لَئِنْ ضَيَّعْتَ وقتْكَ باطِلًا   لَكُنْتَ على حَدٍّ مِنَ العُمْرِ حائِرِ
فما عُذْرُ مَنْ قَدْ حَلَّ تُونُسَ طَالِبًا   وَفِيهَا عُلُومٌ طافحاتُ المَغَادِرِ

كتبه والدك سليمان الباروني 18 ربيع الأنوار ـ سنة 1340 هـ ـ طرابلس الغرب.

وهذه الأبيات التي استشهد بها الباروني وأرسلها إلى ابنه إبراهيم، أصْلُها قصيدة طويلة تتكون من 120 بيتاَ، أرسلها له والده الشيخ عبد الله الباروني، عندما كان سليمان باشا طالبا بتونس في سنة 1305هـ/1888م.

رسالته إلى علماء وأدباء الأمة:

ومن أهم رسائله؛ الرسالة التي وجهها إلى علماء الأمة من خلال جريدته «الأسد الإسلامي»، يسألهم فيها عن كيفية توحيد الفرق والمذاهب الإسلامية، هذا

نصها[1]:

«بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على رسوله الأمين وآله الطاهرين.

إلى معتبري هداة الأمة علماء، وأدباء الفِرَقِ الإسلامية، وَفَّقَهُمُ الله.

المرجو من حضرتكم ـ أيها الأستاذ ـ الذي سنعتمد على أقواله وأقوال أمثاله ممن تمسك بالمذهب المحترم، إمعان النظر في المقالة المحررة تحت عنوان الجامعة الإسلامية في جريدة «الأسد الإسلامي»، الآتية إليكم مع هذا. ثم بعد إطلاق عنان الفكر بحثا وراء عين الحقيقة، نطلب إبداء ما اقتضاه نظركم السامي من الجواب عن الأسئلة الآتية بإيجاز غير مخل، خدمة للجامعة والدين ولحضراتكم الثواب والشكر.

1- هل توافقون على أن من أقوى أسباب اختلاف المسلمين تعدد المذاهب وتباينها؟
2- على فرض عدم الموافقة على ذلك فما هو الأمر الآخر الموجب للتفرق؟
3- على فرض الموافقة فهل يمكن توحيدها بالجمع بين أقوالها المتباينة، وإلغاء التعدد في هذا الزمن، الذي نحن فيه أحوج إلى الاتحاد من كل شيء؟
4- على فرض عدم إمكان التوحيد، فما الأمر القوي المانع منه في نظركم، وهل لإزالته من وجه؟
5- على فرض إمكان التوحيد، فأي طريق يسهل الحصول على الطريقة المطلوبة؟ وأيّ بلد يليق فيه إبراز هذا الأمر؟ وفي كم سنة ينتج؟ وكم يلزم له من المال تقريبا؟ وكيف يكون ترتيب العمل فيه؟

وعلى كل حال فما الحكم في الساعي في هذا الأمر شرعا وسياسة؟ مصلح أم مفسد؟

1) أبو اليقظان إبراهيم: سليمان الباروني باشا في أطوار حياته، ج2، ص 146-147.

هذا ولسنا بناشرين ما يأتينا في هذا الباب شيئا حتى يجتمع لدينا المطلوب الكافي لتكون الأفكار مستقلة، لا يقتبس بعضها من بعض، وإلا دارت على محور واحد، وذلك مما لا يفي بغرضنا.

إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت، وما توفيقي إلا بالله. وعلى حضرتكم السلام. سليمان الباروني».

يقول الشيخ أبو اليقظان معلقاً على هذه الرسالة:

«لسنا ندري ما هو أثر هذا المنشور من هداة الإسلام إذ ذاك، وهل أجاب بعضهم عن أسئلته أم لا؟ وغاية ما نعلم أنَّ تجاوبا بين أنحاء العالم الإسلامي قد رنَّ صداه نحو هذه الدعوة، فتأسست جمعيات للتوفيق بين مذاهب الإسلام، وانعقدت مؤتمرات تهدف نحو هذه الأهداف العالية».

أقول: لقد أجابه عن أسئلته الشيخ نور الدين السالمي(ت 1914م) من عُمان، وبين له فيها أسباب التفرق وكيفية جمع الأمة في رسالة مشهورة.

جوابه إلى قائد جيوش إيطاليا:

ومن رسائله المشهورة؛ جوابه لقائد جيش ووالي الدولة الإيطالية بطرابلس، التي قال فيها:

«... أنا لا أكره أن أرى الأوروبي وعلى الأخص الإيطالي جارنا الجديد يسير بجانب الطرابلسي متحابين متعاونين على الكسب والاستفادة مما أودعه الله من الخيرات في بطون أودية بلادنا ورؤوس جبالنا.

أنا لا أكره الجاهل منهما يتعلم من العالم منهما ما لم يعلمه، ولا أكره كذلك العالم منهما يفيض من نور معلوماته على الجاهل منهما.

ولكنني أكره أن أرى الوطني عبدا مملوكا لغيره، بحيث لا يملك شيئا من دينه

وعِرْضِهِ، فإنَّ الموتَ أسهلُ وألذ طعما من ذلكم عندي.

إذا لَمْ تَكُنْ إلا الأَسِنَّةُ فَلا يَسَعُ المضْطَرُّ إلا ركوبها

أدركتُ بالتجربةِ والسِّيَاحَةِ في بلاد الله قِيمَةَ الإنسانِ الحُرِّ! ولذةَ حياتِهِ الهَنِيئَةِ، وتحققتُ مرارَةَ الاستعباد، والرقية الخالصة من ذلك أيضا، ومن تربية السودانيين في بلادنا، بل في بيتنا كذلك. تربيتُ في الدَّلال في حِجْرِ والدي، وعشتُ مُرَفَّهًا في حياتي، فعرفتُ ما هي المدنية، سكنتُ القصورَ وجلستُ على موائد الملوكِ، ووقفت على أغلب الملاذ الحيوية، ومع ذلك فأنا أستسهلُ في جنبِ حُرِّيَّةِ النفسِ كُلَّ صَعْبٍ.

قاسيتُ لأجلِ ذلك أَلَمَي النَّفْيِ والسِّجْنِ، وها أنا ذا آكل من الطعام أخشنه، وأشربُ الماءَ المالح تارة، والمُرّ أخرى، وأنام على الأرض متوسِّدًا سراج جوادي، وأسير في الليل المظلم الممطر، وفي هاجرة النهار، ولا يضرني ذلك ولا أراه إلا ألذ وأشهى من الشَّهْدِ في جانب الحرية والاستقلال، ولا يزيد بدني إلا قوة، ولا جأشي إلا ثباتا..... الخ»[1].

ومن رسائله أيضا:

1- رسالته إلى موسوليني عندما بلغه أن إيطاليا ألغت القانون الأساسي الذي نتج عن المصالحة مع إيطاليا.

2- رسالة إلى المؤتمر الإسلامي العام الذي انعقد بالقدس سنة 1350 هـ أبدى فيها مجموعة من الاقتراحات المهمة.

3- رَدَّ على أمير البيان شكيب أرسلان بعد أن كتب مقالا في تأبين السيد أحمد الشريف السنوسي قلّل فيه من شأن المجاهدين.

---

1) أبو اليقظان إبراهيم: سليمان الباروني باشا في أطوار حياته، ج2، ص 146-147.

4- عدة رسائل إلى لجنة نزح السلاح في عصبة الأمم، حلل فيها مشاكل العالم، ومن أبرز ما قال فيها: «إنه لا أَمَلَ في السلم مع بقاء الاستعمار».

كل هذه الرسائل وغيرها التي تمثل رأيه في كثير من المواضيع السياسية، نقلها الشيخ أبي اليقظان في كتابه عن الباروني.

والحقيقة أن من يتَتَّبع ما ترك الباروني من كتابات، يستنتج أنه ما إن يجد فرصة سانحة في أي مكان حلّ فيه إلا استغله في كتابة رسائل إلى أصدقائه، أو في قرض الشعر، أو تأليف الكتب، أو في كتابة مقالات للصحف والمجلات، أو رسائل إلى الساسة والزعماء بمختلف توجهاتهم وأماكنهم، ويتضح من خلال رسائله ومقالاته أنَّ الله قد وهبه قلمًا سيّالاً، وفهمًا للواقع، وعزيمة قوية، وصبرًا عظيمًا على الكتابة والتحليل، استحق بهذه الصفات أن يكون في مرتبة عليا.

ابتلاءاته ومرضه ووفاته

الابتلاءات والمحن في حياة الباروني:

ابْتُلِي الباروني خلال مسيرة حياته بعدة ابتلاءات، ذكرنا بعضا منها في فصول سابقة؛ بدأت مِحَنُه بعد عودته من مزاب حيث سجنته السلطات التركية مرتين، ثم أرغمته على الخروج من ليبيا سنة 1906م، عاد بعدها في سنة 1911م، وقادَ معارك الجهاد ضد إيطاليا، ثم سُجِنَ في «السَّلُّوم» حوالي سنة ونصفًا، ثم استأنف الجهاد ضد إيطاليا حتى أجبرته الظروف على الخروج من ليبيا نهائيا سنة 1920م.

تآمرت عليه الدول الكبرى فلم تسمح له بالحركة أ والإقامة في أي من البلاد العربية، وأخيرا بعد أربع سنوات من النفي في فرنسا حَصَلَ على إذنٍ لدخول الحجاز لأداء فريضة الحج سنة 1924م.

ومن الحجاز تَوَجَّهَ إلى عُمان، حيث شعر بأنه بين أهله وإخوانه، وقد تخلَّصَ مِنْ أَسْرِ أوروبا، لكن منذ أن وطئت أقدامه أرض عُمان في أوائل محرم 1343هـ/1924م.، لازمته الأمراض التي جعلته قعيد الفراش مُدَدًا طويلة، مما اضطره ـ بعد سنوات من المعاناة ـ إلى السفر نحو بَغْداد للعلاج.

أزمته المالية:

عندما كان الباروني في العراق عاني من ضائقة مالية أَلَمَّتْ به، بعد أن نفد كل ما عنده من مال، ولأجل التخلص من تلك الأزمة الخانقة، أرسل اقتراحاً إلى صديقه أبو اليقظان في تاريخ 28 محرم 1352هـ يدل على عُلُوِّ هِمَّتِهِ وعِزَّةِ نفسه قال:

«إنّ لي في مصر مَا لا يبعد أو يتجاوز عشرة آلاف نسخة من حاشية المسند للسالمي، ووفاء الضمانة، والأزهار، وديوان الحَضْرَمِيّ، وديوان الباروني، ورسالة سُلَّم

العامّة، مخزونة من سنة 1326هـ، لم أتمكن من الاستفادة من ثمنها؛ بسبب حرب طرابلس، ثم الحرب العامة، ثم منعي من دخول مصر، فهل في الإمكان (خدمة للشرع وإعانة لي) إنشاء جمعية لشراء قسم منها بما يعجبها من الثمن، ولو بنصفه، على أنْ تُوَزَّعَ مجانا وقفًا، بعد أن تطبع بختم كبير فيها كلمة «**وقف**»... أرجو أن تفكروا مع بعض الإخوان في هذه المسألة..».

وفي رسالة من بغداد في 23 ذي القعدة 1355هـ كتب يقول:

«أما بعد ـ فقد وصل كتابكم الكريم، والفكر مشغول بمرض إبراهيم وغيره من العائلة، والضائقة مشتدة، والآن قد انقشعت الغمة، فشُفِيَتِ العائلة كلها، وسيبارح إبراهيم المستشفى، ليسافر لتبديل الهواء في طرابلس، إذا سمحت له إيطاليا، وإلا ففي مصر أو تونس، إذا لم يُمنَع حسب إشارة الطبيب، سَهَّلَ الله ما صعُب.

ذهبت إلى المستشفى لأطلب خروج إبراهيم، فوافق الطبيب على شَرْطِ سَفَرِهِ بدون تأخير، لتبديل الهواء خارج العراق، فحِرْتُ في الأمر، ولا أَمَلَ في وصول شيء من عندكم، فقررت أن أطلب من .... قرض 20 دينارا، وهو خارج بغداد، ومستعدٌّ من قبلُ على إجابة طلبي عند الحاجة. فعدتُ على البيت مساءً، لأكتب إليه، ونفسي تُحَدِّثُنِي بأن الشدَّةَ بلغت منتهاها، ولعل الفرج قريب.

ولما دخلتُ البيتَ قيل لي: إن على المكتب رسالة جاءتك من البلاط، فظننتُ أَنَّهَا دعوةٌ إلى حفلة أو ضيافة رسمية، وقد مللتُ هذه الدعوات؛ لما يترتبُ عليها من نفقةٍ، البيتُ أحوجُ إليها، كأجرة سيارة ذهابا وإيابا، وغير ذلك مما لا طاقة لي على الدوام عليه، لكن وجدتُهَا من ناظر الخزانة الخاصة يقول فيها: إنَّهُ تَلَقَّى من جلالة الملك إرادة في تخصيص 15 ديناراً (1500 فرنك تقريبًا) مرتبا شهريا لنا، فحمدتُ الله على فتحه باب خير ما كان يخطر ببالي قَطّ، في وَقْتِ شِدَّةٍ ما كنتُ أظن

تهون بسهولة، ولكن الذي أمره بين الكاف والنون قال «كن فيكون» في لحظة، سبحانه الفعّال لِمَا يريد ...إلخ»[1].

مَرَضُهُ:

أشار الباروني في كثير من رسائله إلى إخوانه وأصدقائه إلى الأمراض التي كان يعاني منها، ففي بداية مرضه، وبعد وصوله أرض عُمان بشهر قال في رسالة إلى أبي اليقظان مؤرخة في 14 صفر 1343هـ/1925م:

«مرضت نحو عشرة أيام بلغتُ فيها درجة الهلاك، ثم زال الضرر والبأس بفضل الله وإني متدرج في العافية».

وقال في رسالة مؤرخة في جمادي الثاني 1343هـ من بلدة القابل:

«منذ وصلت القابل من شهرين وأنا ملازم للفراش ولمدة سبعة أيام حصل الشفاء والحمد لله، ولكني بقيت عظما وجلدا، ومتى قدرت على الركوب رجعت إلى مسقط ...».

وفي رسالة أخرى أرسلها بعد سفره إلى بغداد للعلاج وتبديل الهواء قال:

«أما صِحَّتِي بعد خروجي من مَسْقَط ففي تقدم سريع، وكأنني اليوم ما بي شيء، ولا مرضتُ والحمد لله (لله هواء وحرّ عُمان ما أقساهما على الغريب!).

والله إني إذا تذكرتُ أَنِّي سأعودُ إلى عُمان أندهشُ، وكأني أرى نفسي قادما يوم المحْشَرِ؛ لِمَا كنتُ أقاسيه من أَلَمٍ مستمر، وتقهقر في صحتي يوما فيوما، وعدم تلذذي بأَيِّ شيء، من أكل وشرب ونوم.

أما الآن فأجدُ والحمد لله كلَّ شيء لذيذا، إنما هناك الأنس والطمأنينة ولذة

1) جميع الرسائل المذكورة في هذا الفصل موَثَّقة في الجزء الثاني من كتاب أبي اليقظان، سليمان الباروني الباشا في أطوار حياته.

الاجتماع بالإخوان الخُلَّصِ والتعاون، بل والجدال معهم في كل وقت على الإصلاح، وفي ذلك لذة أخرى تنسيني الألم وكل تعب».

وقال في رسالة إلى أبي اليقظان بعد عودته من بغداد:

«رجعتُ إلى «سَمَائِل» من بغداد مخالفا نصيحة الأطباء في عدم الرجوع إليها إلا بعد مدة، فبعد وصولي بشهر ونصف عاودني الألم المعهود بشدة، قاسيتُ به أَوَّلًا ما الله به أعلم، ثم هان باستعمال الدواء، وأمكنني اليوم أن أكتب إليكم هذا المختصر بتعب، وسأداوم تناول الدواء إلى أن أتم أشغالي اللازمة، وأُجَدِّد الخروج قبل رمضان لكن إلى أين؟ لا أدري، والأمر لله. طُرِدْت من المغرب إلى المشرق، والآن أُطْرَد بالملاريا من المشرق فإلى أين؟»

وقال في رسالة أخرى:

«عرّفتك من مسقط بعودة الألم إليَّ، ثم عاد إلى إبراهيم مرضه، وحسب نصيحة الدكتور وقنصل بريطانيا بعدم سفره وحده، اضطررت لمصاحبته، فوصلنا اليوم (الخميس 13 رجب) البصرة.

وقد تحققنا أن هذه البلاد (عُمان) ستقضي على أجسامنا وعقولنا معا، والأمر لله ما شاء كان!

أما أنا فلا ملجأ لي غيرها، وأما الباقون فسأُنْهي مسألتهم هذه المرة؛ إما إلى مصر، وإما إلى طرابلس، وإن كان في ذلك ما هو خارج عن طاقتي، ولا ملجأ من الله إلا إليه، وما تشاءون إلا أن يشاء الله».

وفي رسالة أخرى قال:

«إني في خير لولا ملازمة الألم المعهود، وإني أَسْتَعِدُّ إلى السفر، ولا أدري الآن إلى أين، والله يُقَدِّرُ الخير. قد تم بناء المدرسة، والبيت، وسأرسل لكم رسم المدرسة.

أهنئكم بعيد الأضحى المبارك، أحياكم الله لأمثاله أعواما كثيرة في عِزٍّ.

شرفني كتابك المؤرخ في 3 شوال، وساءني تعطيل الجريدة «مزاب» في مهدها، والأمر لله يفعل ما يشاء. أكتب إليك هذا يوم العيد وأنا في تعب من الحمى والحمد لله. سلامي إلى كل الإخوان. من أخيكم سليمان الباروني»[1].

ويبدو أن هذه الرسالة كانت من أواخر الرسائل التي كتبها إلى أبي اليقظان، فقد هنأه بعيد الأضحى وتوفي الباروني في ربيع الأول 1359هـ/1940م.

وعن مرضه تقول ابنته زعيمة:

«أذكر أنه لَمَّا كان في أوائل مرضه ونحن في بغداد، أشار عليه الطبيب باستخدام قرابة أربعين قارورة فارغة عند النوم، لتعمل على سحب البرودة التي في ظهره، فَسَأَلْتُهُ عَنِ سبب هذا البرد القديم، متى أصيب به، فأجابني ـ وَقَدْ جَلَتْ محيَّاهُ تلك الابتسامة الهادئة الوديعة، التي كانت ترتسم على ثغره المشرق كلما تذكر أمر الجهاد ومواقع الاستبسال ـ أجابني قائلا: حَدَثَ في إحدى الليالي في الحرب الطرابلسية الإيطالية الأخيرة، أننا خرجنا لملاقاة العدو في جهات العزيزية، وبعد الموقعة رجعنا فنمنا في الطريق لكثرة التعب، فانهمر المطر وأنا نائم متكئ على سرجي، وكنت قابضا على «شَكِيمَةِ» جَوَادِي، وأنا ممدد على الأرض بدون فراش، حتى جرى الماء من تحتي، وأنا مستغرق في ذلك النوم، وقد أَبَى إِخْوَانِي أن يوقظوني؛ لأنهم رأوني في نَوْمٍ عميقٍ، بعد سهر ليالي عدة، فلما أفقتُ كانت ثيابي كلها مبللة، فَقَفَلْنَا راجعين، حتى اقتربنا من قصر الحكومة بعد طلوع الشمس، فتوجهتُ إليه بنفس الثياب، دون ما أذهب لتبديلها بالمنزل، لأنها كانت قد جَفَّتْ، وكانت كثرة الأعمال تدعوني لعدم التريث لحظة واحدة، فكم من الحوادث القاسية مَرَّتْ كَأَنَّهَا

1) أبو اليقظان إبراهيم: سليمان الباروني باشا في أطوار حياته، ج2، ص 48.

خطرات النسيم»[1].

وفاته:

لما اشْتَدَّ عليه المرض وأقعده، طلب الذهاب إلى الهند للعلاج، فسافر في شهر ربيع الأول سنة 1359هـ الموافق أبريل 1940م، برفقة السلطان سعيد بن تَيْمُور، وصديقه القاضي الشيخ عيسى بن صالح الطيواني وبعض المسؤولين.

وبعد وُصُوله إلى «بومباي»، وَقَعَ مغشيًّا عليه، فنُقِلَ إلى المستشفى، ولم يلبث إلا ساعات معدودة حتى وافاه الأجل المحتوم وفارق الحياة، وتلك هي سنة الله في خلقه. قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: 185]

وكانت وفاته يوم الأربعاء 23 ربيع الأول 1359 هـ، الموافق 1 مايو 1940م، ودفن في الهند. رَحِمَهُ ٱللَّهُ رحمة واسعة. وقد مكثت أسرته في عُمان بعد وفاته عدة سنوات، إذ لم تتمكن من العودة إلى ليبيا إلا عام 1947م بعد نهاية الحرب العالمية الثانية.

وبعد اثنتين وثلاثين سنة من وفاته (25 ذو القعدة 1392هـالموافق 30 ديسمبر 1972م) تم نقل جثمانه من الهند إلى بلده ليبيا بطلب من ابنته «زَعِيمة»، ودُفِنَ في مقبرة «سيدي منيذر» في طرابلس.

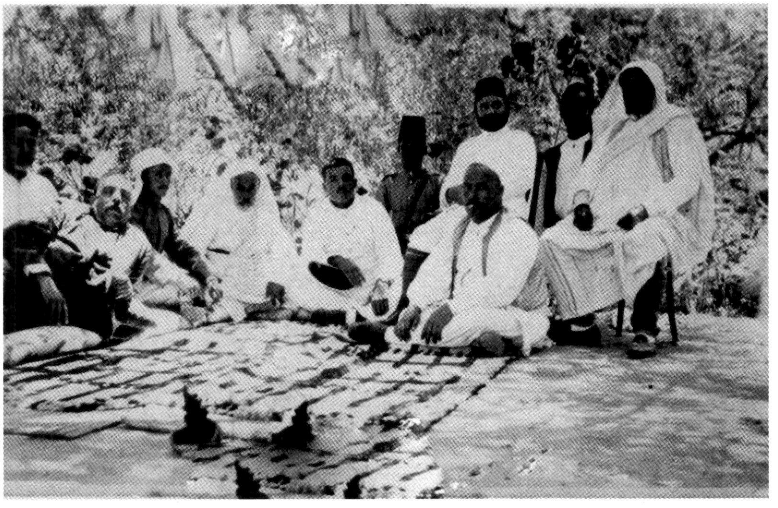
رثاه كثيرون، منهم زميله أبو القاسم سعيد بن يحي الباروني، وهاشل بن راشد المسكري، وأيضا الشيخ سُلَيْمان بن سالم الكِنْدِي[2] بقصيدة جاء فيها:

إنَّ العُرُوبَةَ والشَّهَامَةَ والحِجَا قَدْ ضُمِّنَتْ قَبْرًا بِهِ البَارُونِي

1) حياة سليمان الباروني، ص 28.

2) كامل القصيدة في كتاب «حياة سليمان الباروني»، ص 147.

أَعْظِمْ بِهِ خَطْبًا جَلِيلًا بَاقِيًا   أَبَدًا فَلَا يُفْنِيهِ مَرّ قُرُونِ
مَا هَذِهِ الدُّنْيَا بِدَارِ إِقَامَةٍ   أَبَدًا فَلَا تَغْتَرّ كَالمَفْتُونِ



سليمان الباروني رفقة إخوانه

دُرُوسٌ وعِبَرٌ مِنْ حَيَاةِ البَارُونِي

من خلال دراسة حياة الباروني يمكن استنتاج مجموعة من الدروس والعبر التي يمكن أن يستفيد منها الدعاة المصلحون، والقادة السياسيون من رجال هذه الأمة المباركة.

1. لم يتخل الباروني عن الدولة العثمانية، حتى تخلت عن الإسلام في عهد «أتاتورك». فلم يَخُنْ أُمَّتَهُ، ولم يقف معارضا للدولة التي سجنته مرتين، ولو كان رجلا آخر لملأ الدنيا صراخا وعويلا، لأنَّه سُجن مظلوما، ولكَوّن جبهة للمعارضة، وسعى لإسقاط الدولة العثمانية، وكان بإمكانه أن يفعل ذلك، إلا أنه حرص أن يبقى مواليا لها، منتميا إليها، رغم ضعفها ومساوئها، يدعو إلى الوحدة الإسلامية والجامعة الإسلامية.
2. لم يُكَوِّنْ حزبا ولا تنظيما ولا جماعة ولا حركة بنفسه، رغم قدرته على ذلك، ولم ينضمّ إلى أي حزب أو جماعة، إنما كان مسلما حُرا وحسب. كان يعمل لوحده، ويخاطب كل المسلمين، لا فرق عنده بين عربي وأمازيغي، أو إباضي أو مالكي أو غيره.
3. لم يكن الباروني يبحث عن المناصب، لكنّ الظروف فرضت عليه تَوَلِّي المناصب، وكان أَهْلًا لها، فقام بواجبه خير قيام، سواء في قيادة المقاومة الوطنية ضد الغزاة الإيطاليين، أو عند تأسيس الجمهورية الطرابلسية، أو عندما فَوَّضَهُ الإمام الخليلي في إدارة شؤون ما عُرف باسم مملكة عُمان، ولم يستغل تلك المناصب لنفسه أو أقربائه، وإنما كان عَمَلُهُ خالصا لله، فلم يأخذ أجرا عن كل ذلك أكثر من حَقِّه. ولم يُتَّهَمْ في سرقة أو اختلاس.
4. لم يتعصب الباروني لمذهبه الإباضي ولا لأصله الأمازيغي، ولا لوطنه ليبيا،

وإنما عاش من أَجْلِ الحَقّ، ومات عليه. عاش حياته مجاهدا من أجل وحدة الأمة الإسلامية وعِزَّتِهَا.

5. كان الباروني كالغَيْثِ، أَيْنَمَا وَقَعَ نَفَعَ. فبعد أن أكمل دراسته وعاد إلى وطنه، شَمَّرَ عن ساعد الجد، وبدأ في نشر العلم، فأنشأ مدرسة ومكتبة، وفي مصر سعى لنشر العلم عن طريق طباعة الكتب، وكتابة المقالات، وعندما أعلنت إيطاليا الحرب كان أول من سَجَّلَ نفسه في الجهاد. وعندما كان في عُمان سعى في توحيد الصفوف، وتآلف القلوب، وقام بإنجازات عظيمة.

ورغم تلك الصفات العظيمة التي اتصف بها، والإنجازات الهائلة التي قام بها، فلا زال يُعَدّ خائنا عند بعض أصحاب النفوس المريضة، والنوايا السيئة، والأقلام المغرضة، ولكن مهما قيل فيه من سوء، فلا أحد يستطيع أن يُغَيِّر الحقيقة الثابتة بأنه كان «أُمَّة في رَجُلٍ»، عَرَفَهُ مَنْ عَرَفَهُ وجَهِلَهُ مَنْ جَهِلَهُ.

خاتمة

أرجو أن أكونَ قد وُفِّقتُ في إعطاء صورة واضحة ومختصرة عن مسيرة حياة الشيخ المجاهد الزعيم سليمان باشا الباروني، التي كانت حافلة بالعلم والعمل، والجد والاجتهاد، ورغم الظروف الصعبة التي مر بها، والابتلاءات الكثيرة التي تعرض لها، فقد تبين أنه لم يتوقف عن البذل والعطاء في أي مكان حل فيه، إذ جاهد بماله ونفسه، وقلمه ولسانه، وقاد المعارك من أجل تحرير بلده من الاستعمار، وأنشأ مدارس لتخريج الأجيال المتعلمة، كما أنشد الشعر، وكتب المقالات والكتب.

وكانت حياته في عُمان، التي دامت حوالي ستة عشر عاما، مَلِيئَةً بالإنجازات، التي يعجز عنها كثير من الناس، فَسَاهَمَ في دفع عجلة التقدم في بلده الثاني، واستطاع أن يُطَبِّقَ كثيرا من الأفكار التي تعلمها في خلال مسيرة حياته، التي تعددت أماكنها، فاستفاد من خبرة الأتراك، والإيطاليين والفرنسيين، والبريطانيين، وَجَمَعَ كل التجارب المفيدة، وبدأ في تطبيقها، غير أن الأمراض التي لازمته مدة إقامته في عُمان، ويد المنون التي عاجلته، لم تمكنه من تحقيق كل ما كان يحلم به، ومع ذلك فإن الإنجازات التي قام بها كان لها أثر عظيم، وقد خَلَّدَتْ الأعمالُ التي قام بها ذِكْرَهُ في كل مكان أقام فيه، وتركت أثرًا طَيِّبًا في أرجاء العالم الإسلامي التي نزل بها.

تلك هي بعض الإنجازات التي قام بها الباروني، في وقت كان الاستعمار يتحكم في معظم أجزاء الوطن الإسلامي، وكانت المواصلات ضعيفة، والاتصالات بطيئة، فكيف لو كان الباروني يستطيع الاستفادة من وسائل التقنية والمواصلات المتاحة في الوقت الحاضر؟ أترك الإجابة للقارئ.

ولكن أقول: إنه مع وجود كثير من القيادات الواعية في مختلف البلاد الإسلامية، والإمكانيات المادية والتقنية الهائلة، والصحوة الإسلامية الغامرة، ومع

ذلك فإن توحيد المسلمين على قواعد متفق عليها من القرآن والسنة لا زال أمرا بعيد المنال.

إن ما فعله الزعيم سليمان باشا يعجز عنه آلاف الرجال. لقد كان حقا أمة في رجل، وما أحوج المسلمين اليوم إلى رجال مثله لتوحيد الأمة الإسلامية، وإنقاذها من الدسائس التي تحاك لها من المتربصين بها في الداخل والخارج.

نسأل الله تعالى أن تكون تلك الأعمال في ميزان حسناته، وأن يجعلنا وإياه وكل من يقرأ هذا الكتاب من أهل المغفرة والرضوان. كما نسأله تعالى أن يُكْرِمَ الأمةَ الإسلامية بعهد جديد يتحقق فيه ما كان يعمل من أجله سليمان باشا الباروني بدءا بالتمكين وانتهاءً بنشر الإسلام الصحيح في مشارق الأرض ومغاربها. وما ذلك على الله بعزيز.

محطات تاريخية في حياة الباروني

- 1290هـ/1873م: تأريخ ميلاده، حسب ما ذكرت ابنته زعيمة.
- 1305 هـ/ 1887م: بدأ الدراسة في تونس في جامع الزيتونة.
- 1310 هـ/1892م: سافر إلى مصر للدراسة في الأزهر.
- 1313 هـ/1895م: سافر من مصر إلى تونس للاستشفاء وزيارة أصدقائه.
- 1313 هـ/1895م: ارتحل إلى وادي مزاب للدراسة عند الشيخ أطفيش.
- 1314 هـ/1896م: زار القرارة، بوادي مزاب، الجزائر.
- 1315 هـ/1897م: زار العطف، بوادي مزاب، الجزائر.
- 1316 هـ/1898م: زار تيهرت، بجنوب غرب الجزائر.
- 1316 هـ/1898م: بدأت محنته الأولى بعد عودته من مزاب
- 1319 هـ/ 1901م: كان في سجن القلعة بطرابلس.
- 1320 هـ/ 1902م: صدر عنه عفو سلطاني، وخرج من السجن
- 1322 هـ/1904م: افتتح المدرسة البارونية في مدينة يفرن.
- 1324 هـ/ 1906م: ودّع طرابلس إلى مصر مكرها.
- 1324 هـ/1906م: أنشأ المطبعة البارونية في القاهرة.
- 1324 هـ(1906م: أصدر جريدة الأسد الإسلامي.
- 1325 هـ/1907م: بدأ مراسلة زميله أبي اليقظان.
- 1325هـ/1907م: زار قسنطينة وقرى مزاب مع الشيخ أبي اليقظان.
- 1326 هـ/1908م: عُيِّن نائبا عن الجبل بمجلس المبعوثان العثماني.
- 1329هـ/1911م: وفاة والدة الباروني. جاء من تركيا لتعزية والده.
- 1329 هـ/1911م: بداية الحرب مع إيطاليا.
- 1330هـ/1912م: الباروني يقود المعارك ضد الاستعمار الإيطالي.
- 1330هـ/1912م: اختير رئيساً لأول حكومة وطنية في طرابلس.

- 1331هـ/1913م: معركة جندوبة، ونهاية المرحلة الأولى من الجهاد.
- 1331هـ/1913م: وفاة والده عبد الله بن الباروني.
- 1331هـ/1913م: لجأ إلى تونس، ثم سافر إلى لندن، ومنها إلى تركيا.
- 1331هـ/1913م: أنشأ في تركيا جريدة خصصها للقضية الليبية.
- 1332 هـ/1914م: التقى مع أبي اليقظان في تونس.
- 1332هـ/1914م: زار بني يزقن، الجزائر لتعزية آل اطفيّش في وفاة شيخه.
- 1333هـ/1915م: سُجِن في السلوم لمدة عام ونصف.
- 1334هـ/1916م: عينه السلطان العثماني واليا على منطقة طرابلس.
- 1336 هـ/1918م: اختير عضوا في رئاسة الجمهورية الطرابلسية.
- 1337هـ/1919م: المصالحة مع إيطاليا، واعترافها المزيف بالقطر الليبي.
- 1340هـ/1922م: الباروني في فرنسا، ممنوع من السفر.
- 1341هـ/ 1923م: جاء خفية إلى تونس والتقى مع صديقه أبي اليقظان.
- 1342هـ/1924م: في مرسيليا بعد أن عاد إليها مكرها من تونس.
- 1342 هـ/1924م: حصل على إذن بالحج وسافر إلى مكة.
- 1342 هـ/ 1924م: وصل عُمان، وبدأت محنته الثالثة، (الأمراض).
- 1343هـ/1925م: قام بجولة في داخل عُمان زار فيها عدة مُدُن.
- 1343هـ/1925م: صَعِد قمة الجبل الأخضر في عُمان وقال فيه قصائد.
- 1344هـ/1926م: فوّضه الإمام الخليلي لرئاسة حكومته وبدأ الإصلاحات.
- 1347هـ/1929م: سافر إلى بغداد للعلاج لأول مرة.
- 1349هـ/ أواخر 1931م:التحقت به أسرته من طرابلس.
- 1350هـ/1932م: حضر احتفال تنصيب السلطان سعيد بن تيمور.
- 1353 هـ/1935م: وُلِد حفيده المرحوم طارق إبراهيم الباروني في بغداد.
- 1356هـ/ 1936م: كان في بغداد في رحلة علاجية له ولأسرته.
- 1356هـ/1938م: عينه السلطان سعيد بن تيمور مستشارا خاصا له.

- 1356هـ/1938م: زار صُحار، وقام بتجديد مسجدها.
- 1357هـ/ ديسمبر 1938م: زار ظفار بصحبة السلطان سعيد بن تيمور.
- 1357 هـ/1939م: آخر مراسلة مع أبي اليقظان.
- 23 ربيع الأول 1359هـ الموافق أول مايو 1940م: وفاته في الهند.
- 1392 هـ/1972م: أُعيد رفاته إلى طرابلس، بليبيا.

المصادر والمراجع

الكتب المطبوعة[1]:

1. حياة سليمان باشا الباروني، زعيم المجاهدين الطرابلسيين، أبو القاسم سعيد بن يحيى الباروني (ت: 1372هـ/1952م). طبع مرتين سنة 1942م، و1948م.
2. ديوان الباروني، طبعه الباروني نفسه سنة 1326هـ، ثم طبعته ابنته زعيمة سنة 1972م. آخر طبعة اطلعت عليها هي طبعة مكتبة مسقط سنة 2011م، مراجعة وتصحيح سلطان بن مبارك الشيباني.
3. سليمان الباروني في أطوار حياته، أبو اليقظان إبراهيم بن عيسى، المطبعة العربية، الجزائر 1956م.
4. سليمان الباروني، آثاره وأدبه، محمد مسعود جبران، الدار العربية للكتاب، 1991م.
5. سليمان الباروني، تعريف موجز، زعيمة سليمان الباروني، مطابع دار لبنان للطباعة والنشر، بيروت، 1393هـ/1973م.
6. صفحات خالدة من تاريخ الجهاد الليبي، جمع ونشر ابنته زعيمة سليمان الباروني، مطبعة الاستقلال، القاهرة، 1964م.
7. غاية السلوان في زيارة الباروني لعُمان، د. سعيد بن محمد الهاشمي، مطابع النهضة 2007م.

---

1) لا شك أنه توجد دراسات أو أبحاث أو كتب لم أَطّلع عليها، كما توجد بعض الكتب، والمقالات باللغات الأجنبية، التي لا يخلو بعضها من رائحة النزعة الاستعمارية الحاقدة، وتنقصها الدقة والأمانة، بل منها ما جَانَبَ الحقيقة والصواب، فكثير من المقالات والكتب الأجنبية لا تُعَبّر عن شخصية الباروني الحقيقية، فأغلبها تظهر الباروني كشخصية انفصالية، لم يحارب إلا من أجل إقامة إمارة بربرية في القطاع الغربي لليبيا.

8. أبو القاسم الباروني، المنتخبات الشعرية في الحرب الطرابلسية، مطبعة وورشة تجليد الأنوار 1946م
9. المعلم المقاتل، فاضل السّباعي وآخرون، نشر مؤسسة تاوّالت الثقافية.
10. المقاومة الليبية، ضد الاحتلال الإيطالي في الجزء الغربي من ليبيا، علي البوصيري علي، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، 1998.
11. كتاب السير، أحمد بن سعيد الشماخي، الطبعة الحجرية.

الأبحاث والدراسات الجامعية:

1. حياة سليمان الباروني في سلطنة عُمان، بحث تخرج، 2010م معهد العلوم الشرعية، سلطنة عُمان، إعداد محمد شعبان قجم، إشراف الشيخ ناصر السابعي.
2. سليمان الباروني في مواجهة الاستعمار الغربي، بحث تخرج، 1996م، معهد القضاء الشرعي والوعظ والإرشاد، سلطنة عُمان، إعداد محمد بن إبراهيم بن الحاج عمر بن عمر، إشراف الدكتور محمد بن صالح ناصر.
3. سليمان باشا الباروني جهاده وآثاره، مذكرة تخرج لنيل شهادة الليسانس في التاريخ، 2003م، جامعة الجزائر، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم التاريخ. إعداد الطالبين: موسى بابا وموسى، وداود بابا وموسى. إشراف الأستاذ الحاج موسى بن عمر.
4. سليمان باشا الباروني وآراؤه في الإصلاح السياسي والفكري، بحث تخرج، 2005م، معهد العلوم الشرعية، سلطنة عُمان، إعداد يوسف بن يعقوب بن صالح المعولي، إشراف الدكتور محمد عبد الرحمن الزيني.
5. الشيخ سليمان الباروني باشا، من أعلام الفكر الإباضي المعاصر، بحث مرقون، 18 صفحة، مؤلف مجهول.

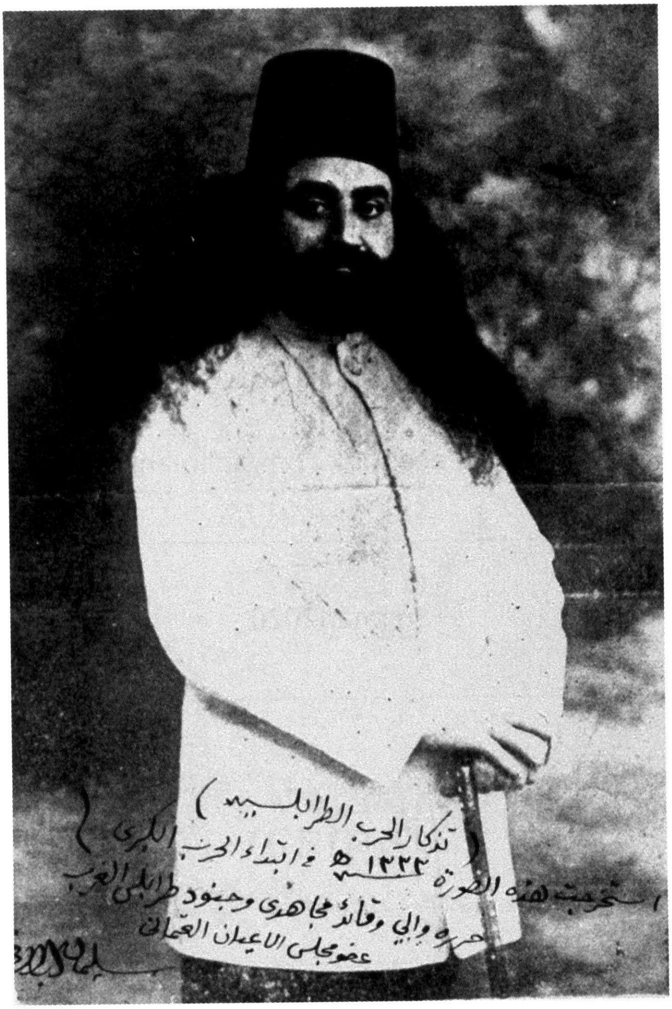
المخطوطات:

1. مجموعة وثائق ورسائل عن حياة الباروني في عُمان، تحصلت على نسخٍ منها.
2. عيسى بن صالح الطيواني، القصائد العمانية في الرحلة البارونية. مخطوط تحت الطبع.

https://archive.org/details/@hassan_ibrahem

فهرس المحتويات

تم بحمد الله



سليمان الباروني سنة 1333 هـ في ابتداء الحرب الكبرى

لأي اقتراحات أو نصائح أو تعليقات يرجي التواصل مع المؤلف

Gmail	sshebani@gmail.com
f	Facebook.com/solimanshebani
	@Soliman2020

طمزين
tamzin

طمزين لخدمات الطباعة والنشر والدعاية والإعلان

طرابلس ـ ليبيا

سليمان باشا الباروني في سطور

ـ ولد سنة (1290هـ/1873م) في مدينة جادو، بليبيا، أرسله والده الشيخ عبد الله بن يحي الباروني للدراسة في تونس، ومصر، والجزائر، ولما أتَمَّها عاد متحمسا ليؤدي زكاة علمه، وليبدأ مشاريعه الإصلاحية في ليبيا، فاستقبلته السلطات التركية بالسجن، ثم أُفرِجَ عنه بعفو سلطاني عام (1320هـ/1902م).

ـ جَدَّدَ مع بعض الأهالي مسجد «جادو»، وأنشأ مع والده المدرسة البارونية في يفرن عام (1332هـ/1904م)، ثم أجبرته السلطات التركية على الخروج من ليبيا، فسافر إلى مصر، وهناك أنشأ مطبعة الأزهار البارونية، طبع فيها ديوان شعره، وكتابه «الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية»، وغيرها من الكتب. كما أصدر صحيفة «الأسد الإسلامي» التي صودرت بعد ثلاثة أعداد، ثم أُحْرِقَتْ مطبعته.

ـ انتخب في «مجلس المبعوثان» ممثلا عن الجبل في سنة 1326هـ/1908م، فسافر إلى تركيا حيث أقام بها إلى سنة 1329هـ/1911م، ثم عاد لبلده. وعندما احتلت إيطاليا ليبيا سنة 1911م، قاد مع غيره من الزعماء معارك الجهاد ضد الاستعمار الإيطالي في غرب ليبيا.

ـ اختير رئيسا لأول حكومة وطنية في ليبيا، بعد أن أَجْبَرَتْ إيطاليا تركيا على سحب قواتها العسكرية من ليبيا، بعد معاهدة «أوشي لوزان» في سنة 1330هـ/1912م. استمر في مقاومته للاحتلال إلى أن تآمرت عليه الدول الكبرى سنة 1338هـ/1920م، فأخرجته من ليبيا، ومنعته من دخول أي بلد عربي، فبقي منفيا في فرنسا عدة سنوات.

ـ حصل في سنة 1343هـ/1924م على إذن من الشريف حسين (أمير الحجاز) لتأدية فريضة الحج، فسافر إلى مكة، ومنها توجه إلى عُمان، حيث اسْتُقْبِلَ استقبالا رسميا وشعبيا، وعاش فيها متنقلا بين عُمان والعراق إلى آخر أيام حياته.

ـ قام بعدة إصلاحات وإنجازات في عُمان، أهمها إزالة الخلاف القائم يومئذ بين السلطان تيمور بن فيصل، والإمام محمد بن عبد الله الخليلي، وبثّ روح الإخاء بين العمانيين، وقد وثق فيه كلا منهما. عَيَّنَهُ الإمام الخليلي رئيسا لوزارته، وفَوَّضَ إليه مهمة الرقي بالإمامة، فقام بتنظيم أمور الدولة خير قيام، وبنى المدرسة البارونية في «سمائل»، وعَيَّنَهُ السلطان سعيد بن تيمور مستشارا خاصا له.

ـ ابتلاه الله تعالى (مدة إقامته بعمان التي تجاوزت خمسة عشر عاما) بحُمّى الملاريا، تَرَدَّدَ خلالها بين عُمان والعراق للعلاج، وسافر إلى الهند للعلاج أيضا، لكن المنيةَ عاجلته، فتوفي يوم 1 مايو 1940م بعد ساعات من وصوله إلى «بومباي».

ـ عاش الباروني حياة مليئة بالكفاح من أجل الدفاع عن الدين والقيم والأخلاق، والوحدة الإسلامية، وساهم بيده ولسانه وقلمه في إصلاح حال الأمة، في كل مكان حَلَّ فيه.